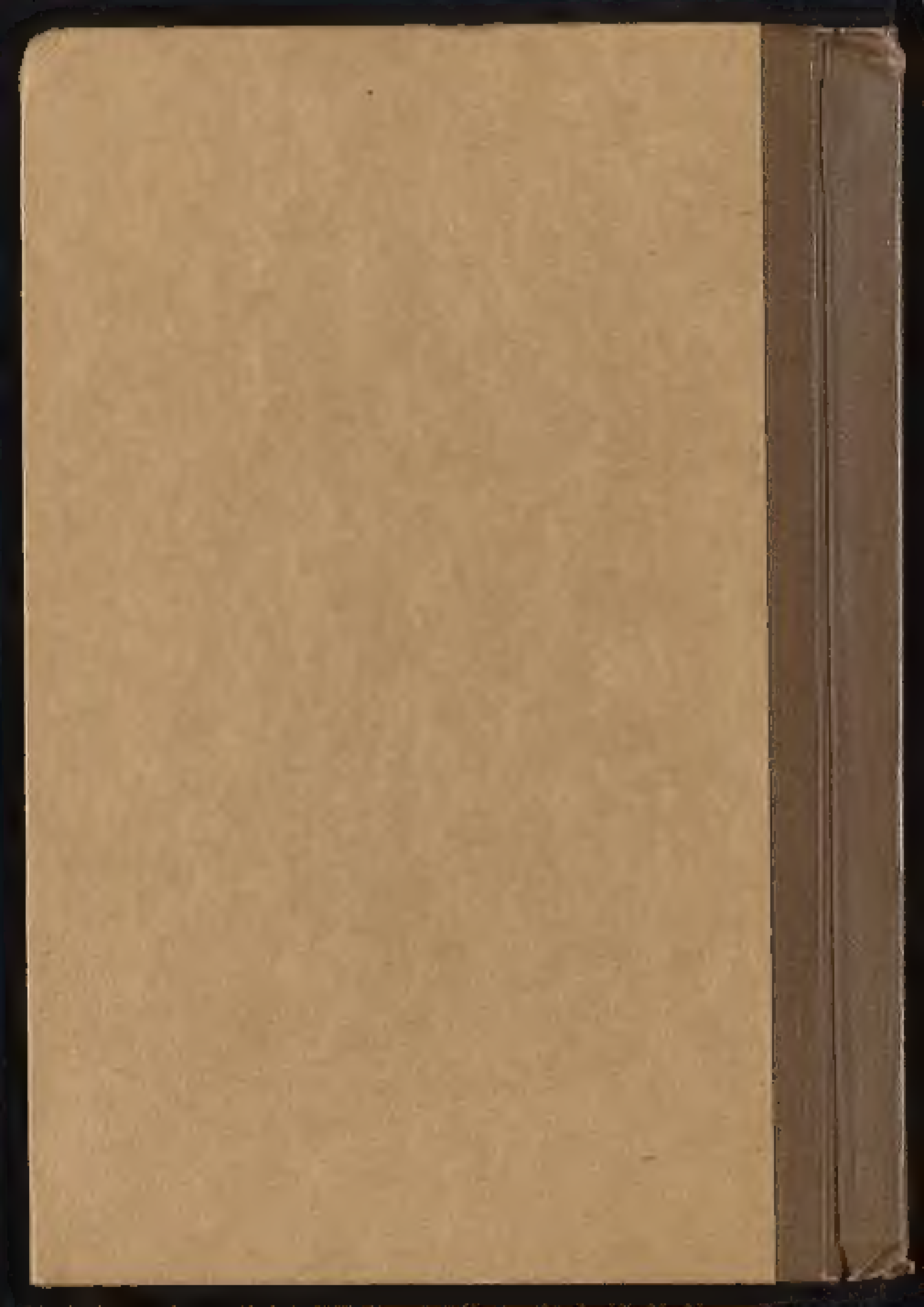

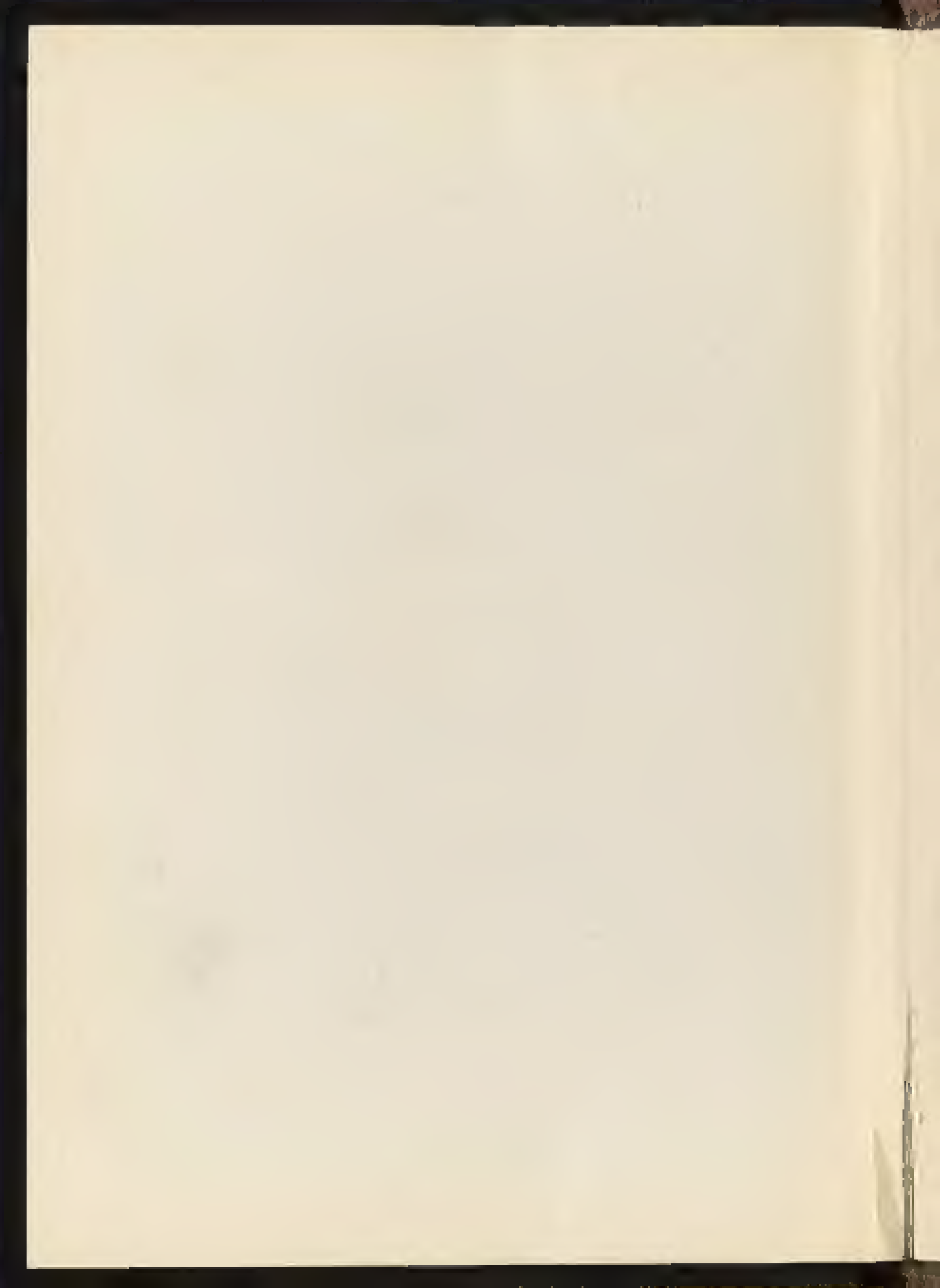

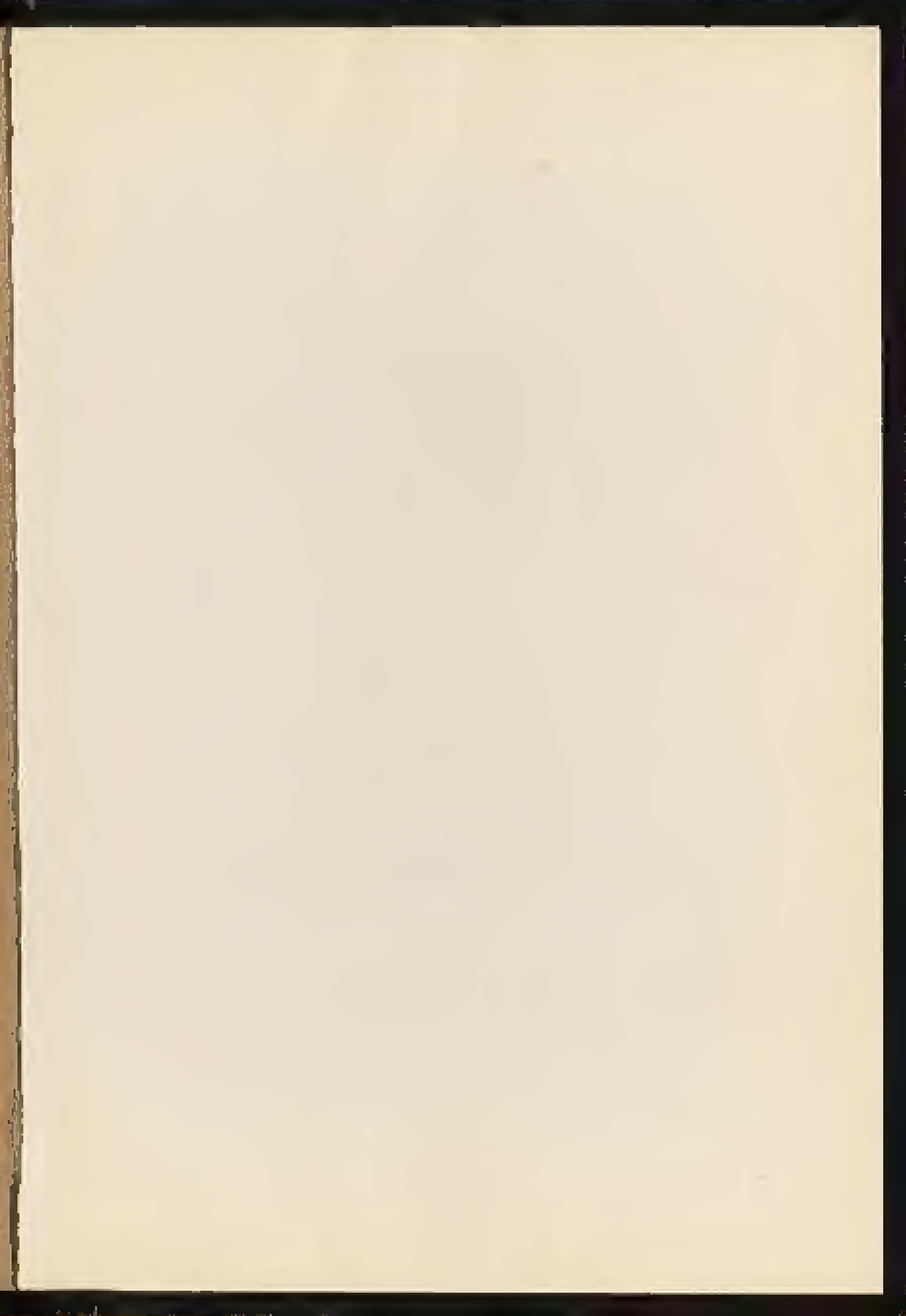

عمر فاخوري

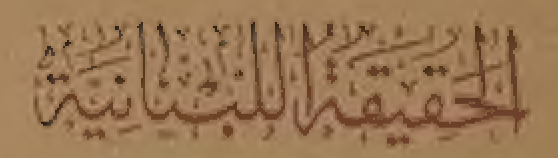

الحقيقة اللبنانية

خواطر وأحاديث

منشورات دار المكشوف

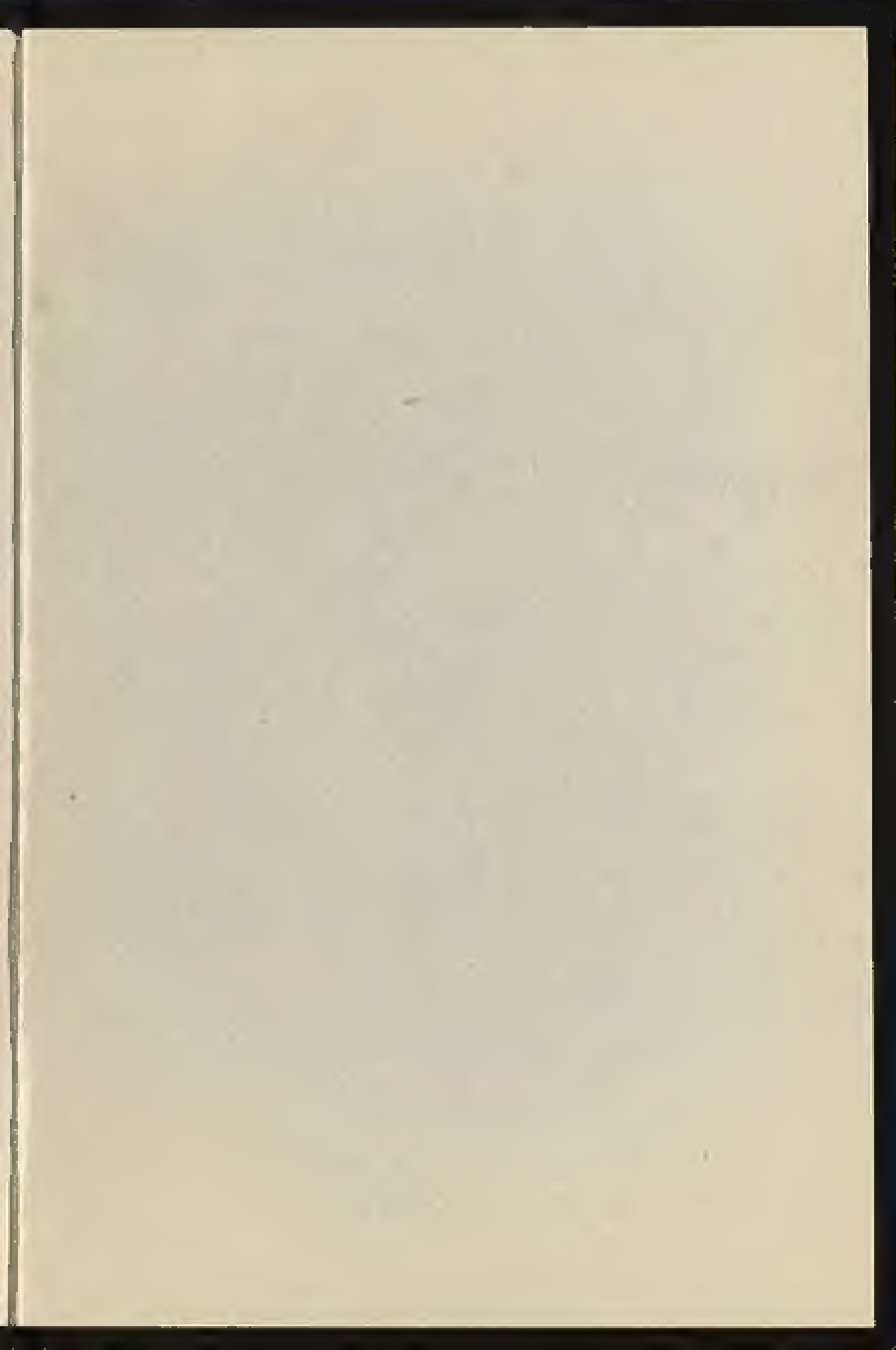

الحقيقة اللبنانية

للمؤلف

الباب المرصود
الفصول الاربعة
لا هوادة
أديب في السوق
الاتحاد السوفياتي حجر الزاوية

آراء اناتول فرنس (عن الافرنسية)
آراء غربية في مسائل شرقية (عن الفرنسية)
مهاتما غاندي (عن رومن رولان)

عمر فاخوري

الحقيقة اللبنانية

خواطر وأحاديث

منشورات دار المكشوف

طبع من هذا الكتاب ألف وخمسمائة نسخة على ورق

جيد، وست نسخ على ورق فاخر

مرقمة من ١ الى ٦ بخط المؤلف

ـ ١٢ ـ

الطبعة الأولى ، ١٩٤٤

•

.. أيحتاج الإنسان كي يعرف قطعة من جغرافيا، وفترة من تاريخ.. إلى أن يتسلق ذروة من ذرى الزمن، وإلى أن يضرب في مسافات الأرض والسماء، ويجيل النظر ثابتة أو حائرة.. في ظلمة الماضي أو غيب المستقبل، في الآفاق القريبة أو البعيدة.. ترى، أيحتاج الإنسان إلى ذلك التعب الشديد، المقعد المقيم، كي ينتهي به الأمر إلى القول في

سره أو على رؤوس الأشهاد : « أنا
صغير ، حد صغير .. صغير جغرافياً ،
وصغير تاريخياً » . لعمري ان تلك
الكلمة ليست مما يُقال قولاً ، بل
مما يهتف به هتافاً . فليس منذ كان ،
ما يقف على ساحل هذا الأبيض
المتوسط ، وراء مدياته المعتمة
والخدِثة ، كما يقف الصياد الذي
دهمته العتمة ولم يعطه البحر سمكة
واحدة .. لا ، لكن قصة شعب
من الشعوب ، من كان صغر
جغرافيته وتاريخه يعوقه او يكفه
أو يمنعه عن أن يعطي امته ، في
عصر من عصور مديه . أداة

التخاطب المثلى ، واساليب العبادة
الفضلى ، وطرائق للفكر و عمل
قويمة .. بل لعلّ صغره في رقعة
الارض وفي زحمة التاريخ ، كان
حافزاً ذلك الشعب ، دائماً ابداً
بحزم لا يُغلب ، إلى الاخذ بضرب
من ضروب العظمة أو السمو أو
التوسع ، يكفي به طموح ذاته ،
ويسد عوزها .

وهكذا رأينا لبنان يبسط سفناً ومدناً ،
ويتسامى آلهة وهياكل . ويتوسع
بالحرف والفكر .. ومن عبقريته المقدسة
كان يشيد معابده الذاهبة صعداً ،
ويبني مراكبه الذاهبة بعيداً ،

كأن له من ضيق مساحته ، وصغر
حجمه ، عند المسافة ثأراً ، ولن
يقرّ له قرار حتى يدرك ثأره —
مقرباً الابعاد ، جامعاً الاضداد ،
واصلاً قصيمة المادة والروح على سواء.
ليست الثقافة في بلد من البلدان ، ولا
رسالتها في شعب من الشعوب ، مما
يرتجل ارتجالاً ، ولا مما يُدسّ في
ضجة المجالس والمجامع ، ولا مما تحدس
به مخيلة شاعر أو ينضج به ذهن
حكيم ، ثم يُعرض على الوجود
فرضاً . وخبرة نفسها (والتاريخ
الذي نحكي حكايته) ليست
سوى حوار لا ينتهي ، بين الانسان

والطمية . ويبدو ان تكون الكلمة
الاخيرة في ذلك الحوار . هذا الكائن
من لحم ودم .. حوار لطيف تارة
وتارة عنيف ، مضطرد او
منعكس ، في صراحة أو جمجمة ..
كرقرقة العصفور وسقسقة الجدول ،
كاصطفاق الموج وتقصف الرعد ..
يهمس همس النسيم أو يدوي دوي
البركان .

لبنان ملتقى السبل المتفرقة ، ومعترك
الامم المتنافسة ، ومزدحم الثقافات
المتقاطعة . ما من قوة في الارض
تستطيع ان تغلق ساحله العربي ، هذا
الباب المفتوح على مصراعيه للابيض

المتوسط ، من مدنيات وشعوب ،
يعطيها ويأخذ عنها ، ثم يُقذف به
واحة عريقة في الصحراء . كذلك
ما من قوة في الارض تستطيع ان
تسلخه عن هذا الشرق السامي الذي
وصلته به ، منذ كان التاريخ بل
قبل ان يكون ، وشائج دم ولغة ،
وتقاليد واساطير ، وعبادات
وثقافات ، ثم يُقذف به جزيرة عائمة
في الاوقيانوس . سيظل لبنان حيث
هو وحيث كان ، من الطبيعة
ومن التاريخ ، همزة وصل بين الشرق
والغرب اللذين يلتقيان فيه . واذا
صح ان ثمة مستقبلاً ، قريباً أو

بعيداً ، ليس يعرف الأثرة لقومية
وما يلازمها من مظاهر الطمع
والفتح والعامة ، ولا التحريم لفكرى
وما ينشأ عنه من تعصب على
اختلاف أنواعه ، فقد كانت إذاً
ثقافة لبنان هي المثلى ، ورسالته
في الدنيا هي الفضلى : ثقافة
تمازج ، ورسالة تواصل .

ولعل أكرم ما يصدره لبنان من بضاعة ،
أبناؤه في النواحي الأربع من الأرض ،
رسل المدنية والسلام ، الخاطرون غير
مغامرين ، المثقفون طبعاً وتطبعاً ،
المحافظون في غير تزمت ، المجددون
من غير تعسف ، ناشرو الأبجدية

قديماً وحضارة العربية حديثاً ، أساؤه
السمر الميامين ، حملة رسالته الثقافية
في العالم .. (شباط ١٩٦٣)

*

ليس سوء الظن دائماً من حسن الفطن ،
رغم قول الشاعر . ولا سيما
إذا كان الرجل من الرجال أو
الفئة من الفئات ، يتخذون من
سوء ظنهم ، مذهباً لا محيد عنه ، أو
طريقة لا محرج منها ، في حال من
الأحوال . فهو حينئذ أقرب إلى
أن يكون من باب سوء النية .
وبالفعل ، لا مندوحة عن افتراض

٢٠

سوء النية في كل سوء ظن « منطق »
كما انه لا مندوحة عن الاعتقاد
بأن المقصود به ليس إظهار حقيقة
أو خلافها ، بل بالقصد ؛ طمسها
او تعميتها .

من الطبيعي ومن المعقول أن يحاسب امرؤ
على ما يقوله أو يعمله . أما أن يحاسب
المرء رأيا لم يقل به ، أو عملا لم يصدر
منه ، فليس من الطبيعي ولا من
المعقول . على أن هذا لا يمنع ،
لحسن الحظ ، إلا في النادر القليل ، أو
في نوبات متقطعة ، لسبب بسيط هو
أنه غير طبيعي وغير معقول ، في
وقت معاً . لكن الأمر الشائع فيه .

المتداول بيننا ، حتى يكاد يعد
« ظاهرة » في حياتنا الاجتماعية ،
هو أن نخاطب المرء أو الجماعة على
ما نخشى وأحيانا على ما نود
أن يضمروه ، ولو جاهروا بعكسه .
نقول ذلك لمناسبة ما يتداوله
بعضهم ، كلما سمع أو قرأ هذه
الصفة « لبناني » تضاف إلى « الثقافة »
أو إلى « التاريخ » أو إلى « الحقيقة »
أو ما شابه ، زعماً منه أن في
هذه الإضافة « الصريحة » في نظرنا ،
إنكاراً أو محاولة إنكار لشأن الثقافة
العربية والتاريخ العربي في ثقافتنا
وتاريخنا ، أو لحقيقة العربية بنوع

عام .. لا ، وليس يخطر لأحد
بال ، هنا أو هناك ، أن ينكر
الصلات الوثيقة التي تربط هذا البلد
الشقيق بسائر الأقطار العربية .
صلات مدنية وروحية . صلات في
الماضي وفي الحاضر . وليس يخطر
لأحد ببال ، هنا أو هناك ، إلا
تحبيذ كل مسعى يهدف إلى توثيق
هذه الصلات ودعمها في المستقبل .
وليس يخطر لأحد ببال ، هنا أو
هناك ، إلا الاستمرار ، فكراً
وعملاً ، على تغذية اليقظة الوطنية
والاتحاد الوطني اللذين قطع الشعب

اللبناني دليلاً ، بل أكثر من دليل ، على اتصافه بها . قد تتعدد آراء اللبنانيين في بعض المسائل ، كنوع العلاقات بين لبنان في جهة ، وبين الأقطار العربية الشقيقة أو غيرها من الدول في الجهة الأخرى ، لكن ثمة أمراً يجمع عليه كل الوطنيين

وهم ولله الحمد الكثرة الغالبة

هو المحافظة على كيان هذا الوطن اللبناني ، واستكمال حر استقلاله ، وذلك أولاً : بتوثيق روابط الاخاء بين أبنائه وطوائفه جميعاً ، وثانياً : بانشاء الصلات الخارجية التي تدعم الاستقلال ، وتضمن مصالح الشعب .

فأما ونحن جميعاً ضمن هذه الدائرة ، فلم يبق
من موضع أو من مبرر لسوء الظن أو
للحذر الطبيعي والمصطنع على
السواء — لا من هنا ولا من
هنالك . ان الطمأنينة والثقة المتبادلة
لمن الأشياء المستحبة التي آن لنا
ان نعرفها ونألفها . (شباط ١٩٦٤)

●

زعموا ان الحقيقة مرة المذاق .. ان الحقيقة
ليست مرة وليست حلوة . ان لها طعماً
خاصاً هو طعم الحقيقة . (٨ اذار)

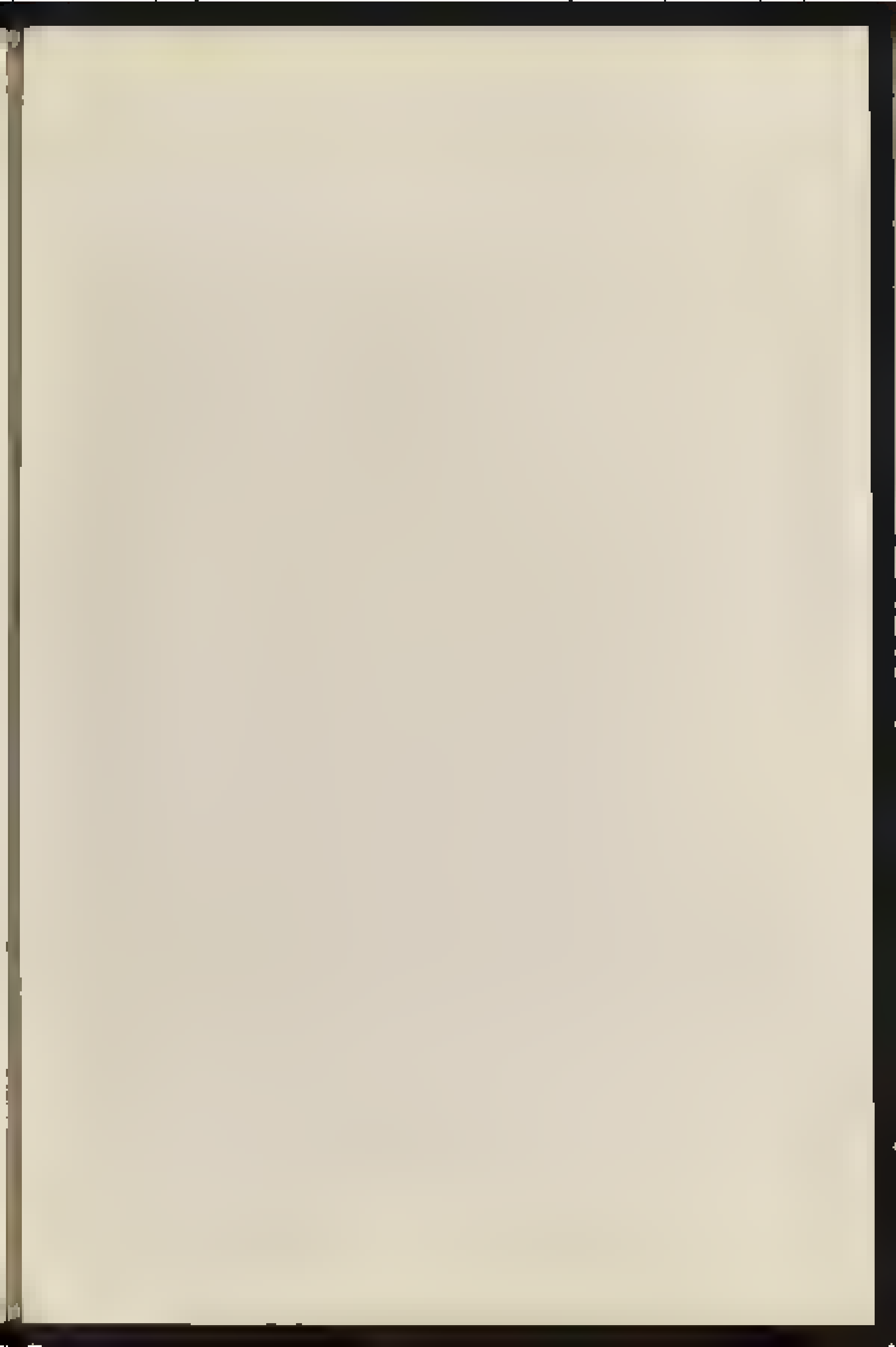

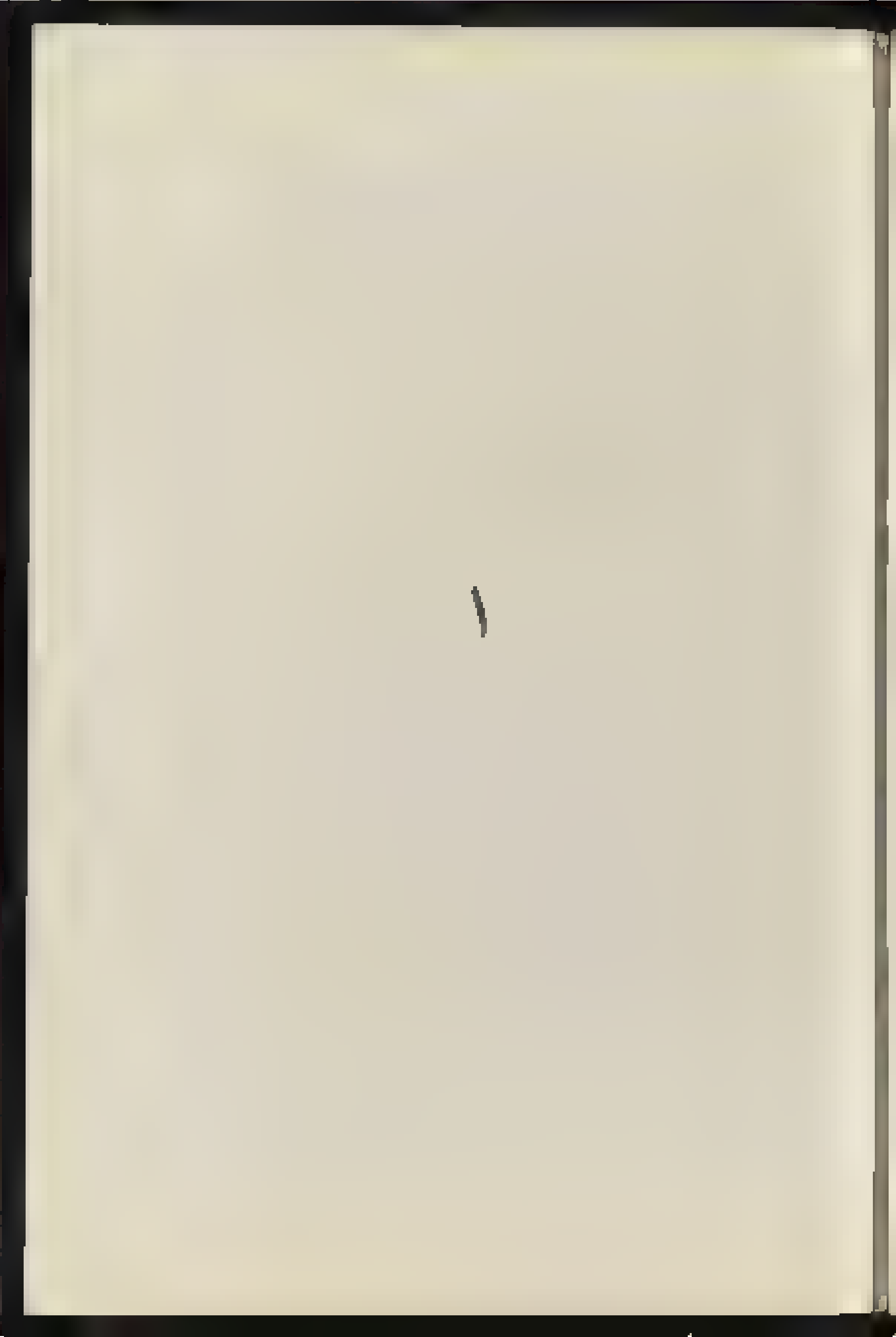

اقسم انى هذه المرة عيب . اعياني سائل من

المصريين أو غير المصريين يسألني : " علام

نحتفل لانتصار الثورة في افريقيا ؟ " لم أعي من

السؤال ، بل من جحود السائل . كنت فيما مضى ،

أتحاشى السائلين ، فرارا من القيل والقال . فاذا

بالسائلين . . . ، كأنهم جمهور مستعمرة ، ورث

من قسورة . اعذرهم هذه المرة توهموا سهلا ، من

البداية ، جواب الصارخ بل الصاعق : " المعنى ،

إذا لم نحتفل هذا الحدث العظيم ، عصبة مكافحة

المادية والعشبية ، فمن يحتفل له ؟ وإذا لم نحتفل

الآن ، وعندنا أسباب أخرى — فمتى نحتفل ؟ " ذلك

ان المحور قد أصابه ... ، وفي وقت معاً ، قارة

من افريقيا ، وبحر هو المتوسط . وأضاع حيث
[illegible] بعد ذو الصحم . وأضاع وقت [illegible] سحبه
من المستقبل لأوانه [illegible] اقرب .. وعما قليل
[illegible] الأمم متحدة على [illegible] ذلك الصرح المرد
ذي أسماه هومر : حصن [illegible] الحصين (ونسميه
[illegible] دمشق فتهوي على [illegible] لحوف ،
[illegible] من [illegible] . ثم تنهض [illegible] ، وتلك
[illegible] . ثم [illegible] الصعداء ، وتقطع
السلاسل ، شعوب [illegible] ، شديدة شديدة ،
وقد اخذ [illegible] من الشرق والغرب ، فكل
كالارة التي لا تدوم [illegible] الوحش نفسه الاخير .
وقفت عشية يوم [illegible] وكهان . وكان قد
[illegible] بعض [illegible] ، نطلب كيلو او كيلوين
من [illegible] ، فوضع البائع عنه في كيس من ورق .

وجعل الكيس (طعماً) في إحدى كفتي الميزان . وكان يزيد في الكيس ، حصة بعد حصة ، ليتم الوزن . لكن يظهر أن الكفة ، تكون عند رغبة الماكياني ، أو وفق هواه .. لم تهبط قط بنحو من السهولة . فأراد أن يتقدم من عامل ميزان ، وحول حصة صغيرة يصح أن أسميها « الضربة القاضية » لأنها رجحت الكفة عنوة ، فصارت قصعة بيد البائع الضعيف ، في عتمة القنديل الأزرق . وأسرع من لمح البصر ، قبل أن « يرتاح » الميزان ، ينتزع الماكياني الكيس تارة بهوائه ، ويقول بدون عاطفة بدر المثال ، « تفضل » بعد أن نقصه بعض حقه .. وزيدة ، أعطاه ثقل يده الخشنة .. وهل رأيتم أرأف من هذا التاجر بزبائنه ؟ انه يساعده بكل ما فيه من قوة ، وما عنده من حيلة .. ثم

استدرني الماكياني بسؤال قائلا : « أمر ؟ » اجبت : « لا شيء .. كنت أفكر في هتلر ذلك الأمس وعظامه الحديد ، وكيف انه وقع أخيراً على من يكن له اصبع صمغ ، وبيده الضربة ضربتين .. » فقاطعني الماكياني قائلا : « هكذا تقول الجريدة ! » وانصرف إلى « خدمة » دون آخر لا يشتمل مثلي في السياسة ..

إذا كان هتلر قد أضاع قاره وعزه ، وحيشا وعتاده الضخم ، ووقت ثمين من المستقبل كان يرجو ان يطيل به أجل الحرية وعظامه الحديد ، فماذا أفقدنا نحن ؟ ماذا حسب من ثمار النصر لعظم التي أحرزه الحلفاء في افريقيا ؟

قد افقدنا مباشرة ، بعد شبح حرب الذي صدنا حين حلال ديارنا ، وافقدنا بصورة عامة ، اضطراب

سعد العصر الجسيم الممض الذي طالما شرنا به ، وهي :
دور قضية الحرية في العالم . وذلك في عصبة
مكافحة النازية والفاشية مجتمع ، ولم تنشد ، ولم
تشهد دفاع عن قضية عالمية ، إلا لأن هذه القضية
العامة هي في الوقت نفسه ، قضيتنا ، قضية بلادنا ،
ومدرسته الأولى .. بعد اقدنا تصريح باستقلال
الوطني ، متكبد من مدرسة حبة الدستورية
المرحلة الأولى ، أو في الأخيرة ، نحو الاستقلال
المنشود . وهكذا نرى ان الثمار التي جنيناه ، أو
سنجنيها من انتصار الأمم المتحدة ، في ميادين
القتال جيش الأحمر العظيم في الشرق ، والجيوش
البريطانية والاميركية والفرنسية في افريقيا ، ومع
قبائل في الحرب الاوربية هذه الثمار لا تشبه
في شيء ، عنب صاحب الفاكهة الذي يطبق النازية

في دكانه ، كما سوّل له الهوى أن يسعد الميزان ، مقصة بيده [illegible] المشئومة . وفي لأسأل الآن : ما الذي كان يصل إليه من حظ في حياة الحرة الرغدة الآمنة ، لو [illegible] حق في ميزان [illegible] التي لا تخلو كفه [illegible] راجحة أبدا ، من عقد [illegible] ونحيب [illegible] العرق [illegible] ذات ميزان ، و[illegible] في كفه [illegible] رجحت الميزان الذي لا يعدل ..

[illegible] كلها لمكانة الأمريكية بيرل باك ..

[illegible] يوم [illegible] الاستعداد [illegible] عن استعدادنا [illegible] من عودتهم [illegible] لأنهم شعروا [illegible] حقهم في الحرية والكرامة [illegible] عندنا . ولعمري متى يعقد [illegible] هذا الشعور [illegible]

حقه في الحرية والكرامة محترم ، ومحترم إلى حد التقديس ، ففي معنى يبقى خيانة ؟ وأي ثمن لا يؤديه ، لفرض هذا الحق في الحرية والكرامة ، بوجه العالم دفعة ؟ ولعمري ان الفرق لواضح بين من يدافع عن شيء هو له ، وبين من يدافع عنه والا حرية له فيه شركة ، حصة ما بقسمة الضيزى .. قد أتى هتلر على حريات الشعوب الاوربية ، وانتهك أقدس كراماتها ، ثم [illegible] تخوف [illegible] ، [illegible] ، وواعده ، لذلك احس ، ان الخصوم الذين يحاربونه من خارج ، اقل عددا وعددا من خصوم الذين يحاربونه داخل اسوارها ، وكانت القارة الاوربية ، في ظل النظام النازي ، ذلك الحصن الحصين الذي تتوافر الهمم ، وتتضافر الجهود ، على حمايته والدفاع عنه ، فكان من العسير هدمه . لكن القارة

الاوربية اليوم سجن محوف ، لشعوب مستعدة تحدم بالثورة ، ولن تلبث حتى تنفجر كابركان ، كذلك كانت روسيا القيصرية ، فبادت ، كما سيقضى على الطغام المدمري ، ان حق الشعوب في الحرية والكرامة لا يمكن ان يبقى منتهكاً ، او سليباً ، او مسكوتاً عنه ، إلا إلى حين . وفي هذا سياق من المعنى يصح القول ان لسان استقلال الشعوب المحررة المستورة ، ان يكون همه الأول سوى التضامن مع الأمم المتحدة ، ومساعدتهم وسع الطاقة ، في مجهودهم الحربي ، للقضاء على النازية أصلا وفروعا .

لم يكن من الحسن ، ولا الرشد في شيء ، ان تفاجئنا السلم ، وليس في الأرض اللبنانية المستقلة ، حكومة دستورية ديمقراطية يختارها الشعب اللبناني

من أبنائه البررة العاملين الصادقين ، لتصريف شؤونه ، ولا سيما تمثيله بين الأمم . لهذا ندعو اللبنانيين إلى انتخاب نوابهم ، وهنا يجب أن يحسنوا الاختيار .. هذه المرة ولا أية مرة ! هو شرط بديهي ، لكنه أساسي .. أساسي كالحياة .

فلينظر اللبنانيون ، ثم لينظروا ، بأي وجه يهمهم أن يطلع وطنهم على الدنيا ، من ظلمة هذه الحرب . إن اللبنانيين أنفسهم هم الذين يصورون ذلك الوجه ، ويرسمون ملامحه وشياته ، ويؤلفون محاسنه ومعايبه . وأكبر الظن أنهم لن يريدوا ، منذ اليوم ، وجهاً من الوجوه الزائفة والمستعارة ، فهذه الوجوه لا موضع لها ، إذا جدّ الجدّ في حياة الأمم . إنما تصلح الوجوه الزائفة أو المستعارة ، للمساخر .

نريد وطناً ، لا طيف وطن . نريد وطناً من لحم ودم . نريد وطناً يحب ذاته ويحترمه الآخرون . يعرف كيف يحب ذاته ، وكيف يفرض احترامه على الآخرين .

في صيف ١٩٤٠ كنت كل أسبوع ، مرة أو مرتين أستقبل في منزلي ، ... كنا على موعد لقاء ، جريدة لا توحي بشيء من صفات الجرائد الصحفية الرائجة التي يلوح بها ، ويبادى عليها في السوق ، بأصوات تصم الآذان ، وتطير من كل مكان .

كانت هذه الجريدة عجيبة حقاً . غير مرتبة ولا مبوبة ولا مزينة باسم مخلوق من هؤلاء الذين يُدعون بالمحررين ، أو المديرين ، أو الكتاب . ولا مر ... كانت أيضاً خلواً من عنوان المطبعة التي تخرجها (أو تزفها) فهي تطبع على الخلاتين . صحيفة مسالمة ، بسيطة الزي والشكل ، متواضعة ،

محتشمة ، كحسناء فقيرة لكن تحترم ذاتها .. صحيفة
« شدة » وكفى !

ما كان أحوجني عهدذاك إلى قراءة الصحيفة
الحرم ، فقد كنت أعدها كمواد الحصرة المهربة ،
وفي قراءتها من الألف حتى الياء . كان يجيئني
في وقت ولا كاتب شاب يسدد لابتسامة ثغره ،
والمرئية الصادقة نظره . يناولني « بضاعته » من
كوة الباب ، ثم ينصرف صامتاً ، ولم يكن يحييني
أو يسمع مني كلمة الشكر . لكن بعد أن « تفاهمنا »
مدة من الزمن ، وبت كل صحيفة ، صرت
أدعوه إلى فنجان قهوة ، ويقبل الدعوة ، فنجلس
ساعة ، أو بعض ساعة ، نتجاذب أطراف الحديث .
فكان يحيل إليّ دائماً أن الفتى ليس سوى « عدد

تمتاز » من الجريدة التي ينشرها ، بل « ينشر » بها . كانت الصحيفة تحيا فيه لحماً ودماً ، فكراً وشعوراً ، حيّة وإقداماً ، ثقة وأملاً في المستقبل ، كما يريده وسيكون .

لقد كنت أجهل اسم ذلك الصديق الحديد الحديد بكل معنى الجدة كنوع مستحدث من الآدميين . وكنت ، ولا أدرى لماذا ، أدعوه بيني وبين نفسي : « بشارة . . » اليوم يقولون لي بلطف : « أجل ، هو أدوار . . » وأنا أحتج بشدّة : « كلا ، هو بشارة ! » وليس في هذا حسرة . .

لو سألتموني عمّا كنت أجد في تلك الصحيفة المتواضعة وعمها ، والتي كانت تحمل إليّ كرسالة خاصة ، مرّة أو مرّتين كل أسبوع ، لاختلطت في ذهني صور وأفكار وخواطر شتّى ، ولا أعرف كيف

أتحدى، ولا كيف أنتهي . حتى الحوادث (أو الأخبار) كان لها في تلك الصحيفة معنى جديد ، وصدى غريب ، كأنما ينظر إليها من زاوية غير مألوفة أو مبتذلة ، لكنها الزاوية « المستقيمة » الصحيحة ، حيث يسعى في السبيل الأقوم ، إلى الغاية الأسمى . تلك الصحيفة هي آخر مدرسة تعلمت فيها سداد الفكر وصدق العمل ، سواء أفي إعلانها على الباري حرباً لا هوادة فيها ، يوم كان الباري كل شيء ، أم في صمودها للدفاع عن خبز الشعب وحريته وسلامته .. وكانت تقول في كل مناسبة ، ما لا بدّ من قوله ، ما يجب أن يقال ، ببساطة لا بساطة وراءها . أعني أنها لم تكن بحاجة إلى تضخيم صوتها ، إذ لا صوت يعلو على صوتها .. هو « صوت الشعب » .

في ذلك الزمن – يُذكر ولا يُعاد ! – كان خالد بكداش وفرج الله الحلو ونقولا شاوي وبعض الرفاق ، يُضطهدون في السجن ، أو يُطاردون فيما هو أضيق من السجن .. لكن صوتهم لم يُخنق ، وجهودهم لم تُكبح ، ونورهم لم ينطفئ . كانت أصداء من الصوت المدوّي ، ومآثر من الجهاد الدامي ، وشعلة من اللهب الحي ، تتلألأ ببريق ، وتشعل نفسي ، وتثير تصوري .. وبيوت كثيرة ، ونفوس كثيرة ، وبصائر كثيرة .

في ذلك العهد – عهد فتوتي ، والمحنة الخبيثة ، والتربص الأخبث ، والحقد الأعمى الذي لا يُغلب ، إلى آخر الخرافة ... لم أكن أعرف خالد بكداش وفرج الله الحلو ونقولا شاوي ، أو واحداً من رفاقهم المبرزين .. كان يكفي ، كي أعرفهم ، أن

امسي سجيناً متطوعاً ، او طريداً محذوراً ، وليس هذا بالامر السهل ، نظرياً أو منطقياً على الاقل .

ثم جاء عير ذلك الزمن .. جاء عهد أحسن حالاً ، عهد ما يزال في تحسن مطرد ، كالمريض الذي يتماثل الى العافية .. وكان من ايادي هذا العهد عندي اني — اخيراً — عرفت خالد بكداش الخطيب الذي يحلق كالنسر ، والقائد الذي يحارب في أكثر من جبهة ، لاسيما ، حينما كانت ، جبهة الحرية . يحلق كالنسر في افق الفكر والبيان ، وكالنسر لا تغيب عن بصره الحديد ، تفاصيل الامور او جزئياتها ، مهما دقت عن النظر ، أو صغرت على البعد .. وعرفت فرج الله الحلو المجاهد الامين ، كل عمل يأتيه خطة سبقة ، وكل خطة يلحقها عمل رائع .. وعرفت نقولا شاوي ..

ماذا أقول لكم ، وهو هنا ، قد رأيتموه وسمعتموه ؟ لكن تعالوا اهمس في آذانكم ، من خلال هذه المقاطع ، انكم لن تجدوا خيراً منه بلداً يمثلكم : يفهمكم فهماً صحيحاً ، ويحس معكم حساً صادقاً . فلهذا ، ولهذا فقط ، كان نقولا شاوي في السجن . علام إذاً لا يكون في مجلس النواب ، لهذا ولأسباب أخرى ؟

وهكذا عرفت خالد بكداش وفرج الله الحلو ونقولا شاوي ، ورفاقهم الكثيرين اليوم ، الأكثرين غداً ، الذين يعملون كالنمل ، ويحسون كالنحل ، ويمشون كالجنود الأبطال ، وفي سبيل أمتهم وحقها في الحياة الحرة الرغدة الآمنة ، ما يعملون وما يحسون .. جزاهم الله عنا كل خير ! لقد علمونا بالحكمة والمثل ، ان المؤمنين بحب الحرية لا يرهبون

وراءهم خطوة إلى وراء، لا يقفزوا خطوتين
إلى أمام، ودلونا على الطريق.

في هذه «المزرعة» الخصب، شجرة شابة
عجوز تعهدها من زمن بعيد، هذا الحي الكريم،
بالسقي والعطف والعناية، فضربت راسخة أصولاً،
منبسطة فروعاً، وارفة ظلالاً، دانية قطوفها..
شجرة تستمد من ماضي الأصيل قوة، تمتد
غصونها نحو المستقبل الوضاح نضجاً، هي شجرة
الأدب في النص الواحد، وفي القصيدة الواحدة..
وكذلك الشجرة هنا، كي يأوي إلى فيئها، ويجني
من ثمرها، الجيل نفسه الذي طالما تاقت إليه
نفوس، واستهدفته جهود.

هنيئاً للمزرعة وذويها، وللبلد وأهله، الشجرة
المباركة التي رسا أصلها، وفرعها في السماء.

لو كنت أخوض المعركة الانتخابية ، ولا همّ لي إلا أن أصل إلى العرش النيابي ، وتستقبلني الكراسي بشوق ولهفة ، وأرتاح نهائياً على الثقة ، ثم أقعد في اليوم مع زملائي الكرام ، لقلت لكم منذ الآن : « شكراً ، شكراً ! إن عطفكم وتأييدكم ومناصرتكم تكفي ، بل هي فوق الكفاية . » عبارة من عبارات اللياقة والامتنان وعيون الحب .. لكن لا ، إن أقوله . ويؤذن لي أن لا أشكركم !

أنتم تعلمون — وأنا بعد أعلم ، وإلا كنت متهماً في فهمي — أن هذه المظاهر الصغرى المطلقة ، والكبرى الرائعة ، تتجاوز كل الأشخاص ولا سيما شخصي ، إلى المبادئ والقيم التي كنا ، ولا نزال ،

بعض من أحباب ، في مختلف الميادين .. أنا أعرف
من ينتظرني ، تريدون أن أحمل هذا النضال إلى ميدان
جديد هو البرلمان اللبناني لدي كل ، وحق يدان ،
نجيم عليه ، في الأعتاب ، سكينة مشوهة ، ولا يرتفع
بعض اصحه إلا حيما يؤمرون بالانصراف ، كالتلاميذ
الخارجين من الصف ، ثم يتمرقون .. يتفرقون
متوعدين إلى ضاس الهال ، وبالفعل ليس يتحف
منهم أحد إلا بنوبع قهوة ، كأن بيتهم هـدم
الذات ، ومفرق جماعات ، وسعال الحي الذي
لا يموت ..

سيكون لكم ، أيها الإخوان ، ما أردتم . هذا
النضال لأجل المبادئ التي تجعل للحياة قيمة ، من
التي لا قيمة للحياة بدونها ، سنحمله إلى مجلسكم
النيابي . لقد أثبتت هذه الحرب أن النصر سيكون

حيث تكون المؤخرة والجبهة معسكراً واحداً ، يخوض في معركة واحدة ، ويرمي إلى هدف واحد . وقد آن لنا أن نجعل من الشعب المدني ومن مجلسه النيابي معسكراً واحداً يناضل في معركة واحدة ، ويرمي إلى هدف واحد . أما أن يظل الشعب المدني في جهة ، بآلامه وآماله ، ومشاعره ومطامحه ، ومجلسه النيابي في جهة ثانية ، ينعقد كمجالس الإدارة للشركات المساهمة ، فذلك ما لن يكون ..

أيها الإخوان ، إن البرنامج الذي أتقدم به إلى جمهرة الناخبين بسيط جداً ، واضح جداً ، متواضع جداً . إنه يتألف من أحد عشر بنداً ، قد لا تخرج في محتواها ، إلا بعض الشيء ، عما تلوح به أكثر البرامج الانتخابية . إنه يعد بتوطيد الاستقلال الصحيح ، وتأمين الحريات الديمقراطية على أنواعها ،

وبتوثيق روابط الإخاء بين جميع المواطنين على اختلاف طوائفهم وأديانهم ، وأواصر الاقتصادية والثقافية بين لبنان وسائر الأقطار العربية ، وبتشجيع الاقتصاد الوطني وحمايته في مختلف فروعه من تجارة وزراعة وصناعة ، وبإصلاح التنظيم المالي ، وبسن تشريع للعمل مستمد من روح العدل الاجتماعي والتضامن القومي ، ثم يستمر إلى آخر حلقات السلسلة . هو ككل برنامج عرفه عهد كثير ، أعني : يأتي البيوت من أبوابها . إنه البرنامج الذي لم يتغير ولم يتبدل منذ عشرات السنين ، منذ وضع الدستور اللبناني ، حسب واحد هو أنه لم ينفذ .. يظهر ، أيها الإخوان ، أن البرنامج كان ذلك فصل من النواب الذين يجمعونه ، فرجونا أن توفقوا هذه المرة ، إلى نواب يكونون فصل من البرامج التي

تحميهم .. نواب يشكون وتحيهم الاستحالى وتمسح جراحهم .. نواب يقولون ، ساعة تقرير المصير ، كلمة الشعب المتدفق الطامح الى الحرية والاستقلال والسعادة : لا يهمسون بها همساً ، بل يهتفون بها هتافاً .

ان البرنامج الذي أتقدم به إليكم ، يتألف من أحد عشر بنداً ، كلها عزيز علي ، حبيب الى نفسي ، كالأولاد لا يؤثر الأب أحدهم على الآخر ، بعطفه وشفقته وعنايته . لكني لا أجد بداً من الاعتراف بأن لي نظرة خاصة الى البند الرابع من بنوده : « توثيق روابط الاخاء بين جميع المواطنين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وأجناسهم ، بروح العدل والمساواة والتضامن القومي » . وكثيراً ما ارجع إلى هذا البند ، حتى أنسق نظري إليه دون

غيره . ن آفة لبنان هو الاستغلال بأنواعه ، وشر هذه الأنواع ايقاع التفرقة ـ ثم استغلالها ـ بين أبنائه لذين أجمعوا على إرادة واحدة ، هي إرادة العيش في ظلال هذا الوطن ، بحرية وعدل وتضامن . قد ازدهر اليقين في نفوسنا ، الاجتماعات الكثيرة التي عقدناها ، والتي كانت تضم الوطنيين الصادقين الواعين ، من كل مذهب ودين .

ن العالم مشغول بحل مشكلة المعنى ، ونحن ما زلنا منهمكين في حل مشكلة ابتدائية حيوية .. كنت أقول حواليه ليس بكافٍ ، كما رأيت البيت يحترق ، ان نهب جميعاً لاخماد النار . يجب ان نمنع أسباب الحريق ، وأن نبعد عن البيت المحرقين . لنقل بصراحة : لا يمكن ان يكون لبنان وطناً مسيحياً ، ولا وطناً إسلامياً .. لا يمكن ان يكون

وطناً لأي دين من الأديان ، أو مذهب من المذاهب .. لا يصح أن يكون لبنان إلا وطناً لجميع اللبنانيين على السواء .

ان وعد احرّ دين ، ان وعد الأحرار دين .

في العام الماضي ، احتفلنا أكثر من مرّة ، وفي أكثر من بلد ، لانتصار خلفاء في افريقيا ، ذلك الانتصار الذي انتهى بتطاير القدرة السمراء من رجس المحور . وقد تجرّد عامئذ ضرورة الموقف ، سائلاً يسألنا ، وهو ضائق ذرعاً باحتفالنا المستمر الملحاح ، سائلاً يسأل : أما لهذه الاحتفال حدّ ؟ . كما يتساءل المغني الذي يردّد ، من أول الليل حتى ساعة متأخرة منه ، الدور المشهور : « أما هذا الليل آخر ؟ » والحق ان ذلك السائل لم يكن واحداً ، كما انه ليس حيايا بهذا المقدار . لذلك أجبناهم على سؤالهم قائلين : سنظل نحتفل بنصر الافريقي ونحتفل ، حتى ندرك

الخاء بعصر جديد ، أو بفتح الجبهة الثانية مثلا .
حينئذ ، وحينئذ فقط ، سنكف عن الاحتفال لذلك
النصر ، كي نفرغ للاحتفال بعصر الجديد ، أو لفتح
الجبهة الثانية ..

ان وعد خرذين . وهو حي اولا ، بعصر الآن
وعمد ، يهي ديد ، فعلى على رؤوس الأشهاد ،
ان عدلت عن الاحتفال بذلك النصر الأفريقي ،
فهو تاريخ قديم ، كي تنصرف بكليتك إلى الاحتفال
بهذا النصر الجديد ، الذي تحرزه الجيش الأحمر في
الشرق ، والجيوش الحليفة في الغرب ، والذي سينتهي
عما قليل ، بتطهير الأراضي السوفياتية ، والأرض
الفرنسية ، وأوروبا بأسرها ، من آفة النازية . وكل
آت قريب .

يقولون ان النازية لم يبق عندها شك في

وشيك ومحتم ، لكنها تود ان تكسب ما أمكن من الوقت .. نحن إذن مقتنعون ان الانهيار محتم ، لكن مسألة متى وقت .. سوى ان الوقت كان يمشي في ركاب الامم المتحدة ، كان في خدمتها . بالأمس كان همرشولد نفسه يا عصر التحقق ، وها هو اليوم يوشي نفسه بالالتزام الخطي ..

« لا يجوز الحكم على هذه الامور بما يحدث من تطورات بين عشية وضحاها ، اذ لا يمكن ان يكون للانتصارات أو الهزائم الموقتة أهمية حاسمة ، بالنسبة إلى حرب من هذا الطراز العالمي و « التاريخي » الواسع .. »

يخيل إلينا ، أول وهلة ، ان هذه الكلمة قيلت منذ ثلاث أو أربع سنوات ، وان الذي قالها هو

أحد قادة الامم المتحدة التي لم تكن على قدم الأهبة المادية والمعنوية ، أو التي أخذت على حين غرة . لكن لا ، ان هتلر هو الذي قال منذ بضعة أيام : لهذه الحرب مدلول عالمي وتاريخي واسع .. أيؤذن لي هذه المرة ، أن لا ارسل نفسي على سجيتها ، فاتش هتلر ، وقد فتحت عليه الجبهة الثانية في الغرب ، يتعزى أو يتسلى بفتح جبهته الثانية في .. التاريخ . كلا ، ان الكلمة معنى آخر هو تحذير بارويه ، الرؤية التي كان وما زال يدعو اليها بني قومه . ان ما يعنيه هتلر هنا يهمنا بالدرجة الاولى ، ولا يصح ان نمعن فيه طرفة عين .

وماذا يعني هتلر بقوله ذاك ؟

يريد ان يقول انه قد غلب هو ، لكن النازية لم تغلب نهائياً ، وان الماكنة الحربية الضخمة التي

أعداؤها. القوة المادية قد تحطم، لكن الروح لا تحطم الى الأبد، وان المانيا بعقل النازية في هذا الزمن، قد تضطر الى طرح سلاحها، الى التسليم، لكن الروح لا تطرح سلاحها، ولا تسلم.. يريد هتلر، بعبارة واحدة، ان يقول: ان الروح النازية التي فشلت في هذه الحرب، في مجالها العملي، لم تفشل بعد في هذه الحرب، في مجالها التاريخي. فليس بكاف ان يغلب هؤلاء، وان تحطم ماكنته الحربية، وان ترمي المانيا سلاحها، كي نطمئن الى ان الروح قد لفظت انفاسها الأخيرة، وانه لن يبعث من في القبور. ان هتلر الذي انهزم في ميدان الأمم، يضرب لنا موعداً في مجال التاريخ.

كل ذلك عرفناه، ولم نكن بحاجة الى ان يذكرنا به مذكر. سنكون دائماً في الموعد، مهما

يكن الاسم الذي تتسمى به النازية، والقناع الذي تتقنّع به النازية، ستكون دائماً في موعد، وفي المعسكر نفسه، معسكر الحرية والتقدم، معسكر النصر.

كل هذا عرفناه. ولم نكن بحاجة الى من يذكرنا به، حتى ولا هؤلاء المسمَّين بالقوميين، المبادرة للأجرام، الذين يطمعون هم أيضاً أن يشدّوا العجلة الى وراء، وأن يرجعوا بنا القهقرى، وذا غاية جهدهم انهم يمثلون في بلادنا، بعد فاجعة النازية في المانيا وفي ايطاليا، ذلك الفصل الهزلي الذي يظهر انه لا بدّ منه. لكن حبذا لو كانوا يختارون لهذه المهزلة مسرحاً غير لبنان! فسنحملهم على ان يختاروا لها مسرحاً غير لبنان!

منذ حدثتكم ، آخر مرة ، في هذا المكان ، وكان ذلك بمناسبة أول مؤتمر على ما اذكر ، حدثت في البلد أحداث وأحاديث .. هذا أقص عليكم مما حدث ، وهي حياتكم اليومية والعامة على السواء ؟ خلاصة الأمر انه جاءت حكومة ، بعد ان ذهبت حكومة ، أو جاءتا وذهبتا في وقت معا ، وهو الأصح .. وليس تدري احداها متى جاءت ، ولا الأخرى متى ذهبت .. كما نحن لا نعرف على التدقيق من الذين ذهبوا ، ومن الذين جاءوا .. يقول بعضهم بأن الحكومة التي جاءت هي خير من الحكومة التي ذهبت ، ويقول فريق آخر بالعكس ، وكل من الفريقين غير مقتنع كل الاقتناع .

ثم انه انعقدت مؤتمرات وانفضت مؤتمرات ، أو لم تنعقد حتى انفضّت .. وقد كانت هذه المؤتمرات كالسؤال وجوابه ، أو كالصوت وصداه . لكن الجواب ما لبث حتى صار سؤالاً يحتاج إلى جواب ، والصدى صوتاً يثير اصداء .. وهكذا دواليك . ثم انه تغيرت السياسة : كانت سياسة أشخاص و « بعض المبادئ » فأمست سياسة مبادئ من غير أشخاص ، وسياسة أشخاص من غير مبادئ ، وأخيراً وهو الأقرب الى روح العصر سياسة « بعض » مبادئ و « بعض » الأشخاص .

ماذا تريدون ان أقص عليكم ؟ الأفضل ان « نسافر » من هذا الزمن ، ونرجع الى الوراء ، قرناً ونصف قرن ، فنتحدث عن الثورة الفرنسية مثلاً ، علاوة ان نرجع الى ابعد من ذلك العهد ،

الى ما قبل التاريخ .

تعيد الأمة الفرنسية ونعيد العالم معها كل عام ، ليوم الرابع عشر من تموز ، ويسمونه : عيد الحرية . في ذلك اليوم من سنة ١٧٨٩ أثبت الشعب ذاته وإرادته وقوته . وفي ذلك اليوم أيضاً كانت الانسانية ، وفرنسا في الطليعة ، تجتاز احدى المراحل التاريخية الكبرى نحو انعتاق الانسان من العبودية وتوابعها .

ماذا كانت حالة فرنسا في ذلك العهد : حالتها السياسية والاجتماعية ؟ أخاف ، اذا أنا أطلت الكلام في الموضوع ، أن يبادر الى الأذهان اني أحدثكم عن حالة بلادي أو أدعو الى الثورة .. حاشا وكلا ! ان حقوق الانسان قد أعلنت عندنا من زمن بعيد ، منذ الدستور العثماني على الأقل ، ولم يبق إلا أن

تطلق ، وكل آتٍ قريب .. على ان سلسلة الأحداث الخطيرة التي عرفت بالثورة الفرنسية ، لم تكن حلقاتها الأولى سوى حركة تقدمية سلمية يُراد بها رفع المظالم الصارخة ، بل « زوائد » الفادحة التي لم يكن عجيباً من الشعب الفرنسي أن يصبر على إزالتها حتى بالعنف ، وقد كان الصبر على ذلك ، أو على محاولة إزالتها ، من بعض الصفات ، بالعنف والخيانة معاً ، أعجب وأدهى وأبلغ في النكاية .

في أواخر القرن الثامن عشر تغيرت أشياء كثيرة في فرنسا ، ومن جملتها الأفكار : هكذا تبدأ الحكاية .. فالأوضاع والأسباب التي كان الشعب الفرنسي مذعناً لها كأنها لا مندوحة عنها ، أصبحت في نظره مظالم لا تطاق ، من الواجب ومن الممكن إزالتها . ولم يكن الشعب عهد ذاك يطلب غير وضع

ضد الاستبداد بالحكم، والتعصب الديني أو المذهبي، وعدم المساواة بين الأفراد، كانت مطامعه تتلخص في شعار مشهور يتداوله الألسنة والأقلام، منذ أواسط القرن، «حرية — مساواة» وهي، كما ترون، تشتمل على شيء من التطرف، تدل على الأقل، لكن معنى هذه الصيغة الحالي، كان اعتراضاً عملياً على طريقة الحكم المطلق، وعلى سنة الإكراه في الدين، وعلى قاعدة التفاوت في الضرائب والمكوس، وعلى مزايا الإقطاعية بوجه عام، أي حملة واحدة على الامتياز.. سوى أن دون الامتياز لا يعني حرية ولا مساواة، لسبب بسيط هو أنهم محكومون: تحكمهم الامتيازات!

قد أجمع المؤرخون على القول بأنه يكفي في المجلس الوطني المنعقد سنة ١٧٨٩ والذي أعطى فرنسا

حـ ورها الحديد ، ثوري أو رجعي فتنة واحد . إذاً
ثمن هم الذين ثاروا واضرموا … الفتنة؟ ان الرجعيين
من الطبقات الممتازة ، اخذوا يدبرون بكل الوسائل ،
في داخل وفي خارج ، النظام الذي استصلحه الشعب
الفرنسي … وانتصاه لذاته . ذلك ان الرجعية لم تؤت
صبر الشعب وسعة صدره ، فتسلم من هذه الأنظمة
اصلاحات واحدة لا بد منها … على الأقل لا
… … وطفق ذوو الامتياز من النبلاء وغيرهم ،
يهجرون الى البلاد الاجنبية ، حيث عبأوا جيشاً
على رأسه ستة آلاف ضابط ، من تسعة آلاف هم
كل ضباط الجيش الفرنسي . وكان في عدادهم شقيق
الملك لويس السادس عشر ، واخوه الادنون . فما الذي
يتوخاه ذوو الامتياز عن افتراقه ، لحفظ امتيازاتهم ،
وتنزه استعلائهم ، كأن الوطن « حق » لا شركة

لاحد فيه ، حتى ولا لكادحين لعاملين فيه ؟ (يظهر ان ثمة فرقاً بين الاشتغال في « الحقول » والاشتغال في « حقل الوطنية » فكلتاهما مهنة خاصة ، على حدة ، لها أربابها . .)

والآن ، ماذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة المعقولة الطبيعية ان المجلس العرفي اتخذ قراراً عادلاً منصفاً لأولئك الأشراف الذين أثبتوا ، مرة أخرى في تاريخ الأمم ، ان لفظة « الشرف » هذه قد تكون ، في كل الحالات ، من أسماء الأضداد . . وان المجلس لم يوافق على قرار مجلس الأمة ، بل اخذ يعمل على استمالة اعضائه وقادة الجيش ، بالرشوة وغيرها من حيل أو الطرق غير المشروعة ، حملهم على مناوأة النظام الجديد . وكان في الوقت نفسه يفاوض زملاءه ملوك اوربا طالباً النجدة . وقد حاول الفرار

من باريس عاصمته ، فقبض عليه وأرجع بالقوة .
ثم سجن وحوكم وأعدم ، بتهمة ممالأة العدو والتآمر
على سلامة الوطن .. زعموا ان ذلك الرجس كان
ملكا بإرادة الله . أما الأمر الثالث فهو ان شعبه
صفق له دهراً !.

إن الثورة الفرنسية لم تعلن حقوق الفرنسي
وحسب : حقوقه السياسية والمدنية ، بل اعلنت
أيضا حقوق الانسان . وهكذا كانت الثورة
ومبادؤها تسير نحو خير وصلاح الأمم جميعاً ، حتى
يصح أن تكون ثورة انسانية عالمية ، بقدر ما هي
ثورة فرنسية وطنية ... وإلا كانت كل أمة في العالم
تترك للفرنسيين مؤونة الاحتفال بثورتهم ، ثم تفتش
لها عن ثورة او شبه ثورة خصوصية تتسلى بها ، اذا
لم يكن بدّ من الاحتفال .

كانت الثورة الفرنسية تشير خير وصلاح وأمل للامم جميعاً ، ولا عجب أن تكون في الوقت نفسه نذير فتن وخطر وخسران ، للملوك والامراء ، وذوي الامتياز في العالم كله . كذلك انبعث هؤلاء الملوك والامراء ، وذوو الامتياز حتى انقضوا على الشعب الفرنسي واجتاحوا ارضه ، فكانت الملحمة المجيدة التي هب فيها الشعب يذود عن وطنه وعن كرامة الانسان ، صامداً في وجه الرجعية الاوربية ، منتصراً في معاركه ، ناشراً حيثما حلّ ، بذور المبادىء الجديدة ، مبادىء الحرية والمساواة والاخاء ، للافراد وللامم على السواء .

قد انقضى قرن ونصف قرن ، منذ ذلك العهد ، واجتاح العدو الغاصب الارض الفرنسية ، كرة اخرى ، وشهدنا في فرنسا ثورة ، لكن معكوسة .

ثورة على الشعب الفرنسي ، تريد أن تحطم ه القهقري .
إن الرجعية حيثما كانت ، تنعم في كل إناء ، ولا
تدع فرصة إلا اغتنمتها . وقد اغتنمت الرجعية
الفرنسية ، هذه المرة ، فرصة هتلر القائل وهو
الكاذب . " ليست الديمقراطية سوى أكذوبة "
وغوبلز الصارخ وهو ينتح العمر : " إن عام ١٧٨٩
سيلغى من التاريخ . " حقاً إن الرجعية حريصة على
تقاليدها ، وهي لم تخرج قيد شعرة ، عن خطة مهاجري
الثورة الذين ائتمروا والأجنبي ، ومشوا صفاً واحداً
في خدمة ملك بروسيا ، تحاربه جيوش الجمهورية
الاولى . لكن للشعب الفرنسي ، وهو من أعظم
شعوب الدنيا ثورية واندفاعاً إلى الاصلاح ، تقاليده
أيضاً ، وليس يحيد عنها قيد شعره ، ساعة الخطر .
إن المقاومة الفرنسية ، في داخل وفي خارج ، تحمل

المشعل الوهاج الذي لا يطفأ : مشعل الحرية وحقوق الانسان والتقدم .

من حقكم الآن ، وأنا أهم بالانصراف ، أن تسألوني . (ونحن ما شأننا " أين مشعل تقدمنا وحريتنا ، وحقوق " انسانيتنا " ؟) هذه أيضا أقصوصة من تلك الأقاصيص القديمة الجديدة ، كالحكومات التي تروح وتجيء ، والمؤتمرات التي تنعقد وتنفض ، والسياسات التي تتبدل وتبقى هي هي .. كقصص الحيات لا تنتهي إذا لم يوضع لها حد .

من منكم لم ير ، في ساحات هذه العاصمة ، البهلوان الذي يزدحم الناس حوله ، ويشدهم من طريقه العجيب العجاب ؟ ألم تبصروا الشيء نفسه بالمشعل ، كيف يلوح به في الفضاء فاذا نوره يخطف الأبصار ، ثم يبتلعه فاذا لا نور ولا نار ! . هو

مشهد محال ، لكن الصمود في غزة حقيقة مشهودة ، وواقع راهن . فاذا أردتم ان تعرفوا اين مشعل تقدمكم وحريتكم وحقوقكم ، فتجدوه في خلق مدرسة « المقاومة » .. انظروا ثمة قبل فوات الاوان ، وان خلق سياسة اقرب الطرق الى حلها .. ان على كل امرئ ، و كذلك على كل أمة ، حين من الدهر ، تجب فيه ان تختار ، ولا سيما ان نفسها للاختيار . واكبر الظن ان منتخبي اليوم ، سيكون السياسة غداً الاحرار منهم ، أو عبيدهم ، أو [illegible] . سيختارون هم بانفسهم لانفسهم ، ويجربون هكذا حظهم . ولنلتفت مثلاً الى مبادئ الثورة الفرنسية وما سواها من حركات التقدمية ، ليست فقط في الكتب التي نقرأها ، بل هي ايضاً في الحياة التي نحياها .

صديق المسيحيين ، سجين ونفي بضع سنين ،
من قادة الشعب العربي في مناضلته الحزبية منذ
كانت ، وهو في السبعين الآن .

ان صفة واحدة من هذه الصفات ، أو مأثرة
واحدة من هذه المآثر ، كافية لأن تجعل المرء عندنا ،
جديراً بالتكريم الخاصة ، والحفاوة البالغة . فكيف
وحدث عزيز قد اجتمعت فيه كل تلك الصفات ،
كل تلك المآثر ؟

على اني لست أضمن أن لا صفات له ولا
مآثر ، إلا ما ذكرت ..

آه ! نسيت أن اقول لكم انه شيوعي ايضاً .

إنكم ، ولا ريب ، ستحتجون بأن « أيضاً » هذه هي في غير موضعها هنا.

– بهذا كان يجب أن تبتدىء ، وبه تنتهي ، فعلامَ التطويل ؟!

وسترون عما قليل ، كيف يقابل حالك غريزا تكرمتنا وحفاوتنا : لقد فهم – ولم يرض بأن يفهم شيئاً آخر – انما نطالبه بحديث مسهب ، بمحاضرة عن « مقاومة الشعب الفرنسي وفرنسا الجديدة » : ذلك في نظره هو كل هذا الاحتفال.

وسترون انه تكلف وحده من الجهد ، أكثر مما تكلفنا نحن جميعاً ، فأتى – يا للضيف الكريم ! حاملاً إلى مضيفيه « الزوادة » الفاخرة ، المنشطة ، الطيبة ، زادا التحية مثلها ، بل خير منها.

إن حالك غريزا وصحبه يعرفون كيف يصرفون

هذه الحملات والتظاهرات ، عن وجوههم إلى وجهاتها :
الوجهات التي هم يرونها أحق بالتكرمة والحفاوة ،
إلى الأشياء الباقية والقيم الرفيعة التي لا معنى
للحياة بدونها .

إن جاك عرنزا وصحبه الذين صمدوا في الجحيم
النازي أو في « تفرعاته » للتعذيب ، للتنكيل ،
للتقتيل ، للابادة ، راسخي القدم ، ثابتي الجنان ،
عالي الجبين ، يعرفون كيف يحنون رؤوسهم الأبية ،
كي تتجاوزها باقات الزهر التي يرشقون بها ، إلى تلك
الأشياء الباقية ، والقيم الرفيعة التي لا معنى للحياة
بدونها : إلى وطنهم ، إلى شعبهم ، إلى مثلهم
الانساني الأعلى .. ولمن ذلك ، والحق يقال ،
ناشيء عن انهم تعودوا من الرشق ، إلى زمن قريب ،
غير هذا النوع الزاهر ! .

انسا من الذين يتصنعون اليأس من الشعب الفرنسي تصنعاً . لسنا من الذين يوطنون انفسهم على « ضرورة » اليأس من الشعب الفرنسي . اكثر من اي شعب من الشعوب ، وكأنهم يريدون ان يخصوه بهذه « المعاملة الممتازة » كي يتفرغوا لهوى اجنبي آخر ، لرجاء « متضخم » . كلا ، لسنا من هؤلاء .

ربما وحسب نخشى لومة لائم ، ونحن فوق تهمة اي متهم — نحب بفرنسا الجديدة كما يصورها جاك عرنزا صديق العربيين ، ورفاقه اصدقاء الشعوب .

تلك الصداقة التي نرحب بها ، والتي لا محل لسواها ، لا في عقولنا ولا في قلوبنا ، صداقة الوطن المستقل لوطن مستقل ، والشعب الحر لشعب

حر ، والجماهير العاملة لجماهير عاملة .. ليست صداقة فئة هنالك مثقفة هي ، هي احرى بان تُدعى « شركة » اي ان نسمي باسمها ..

ذلك الضرب من الصداقة هو الذي انطلق حاك غريزا منها في بيروت ، منذ عام ١٩٣٨ بهذه الكلمة . « نحن لا نريد استقلال لبنان وحسب . نحن نريد استقلال الشعب اللبناني ايضاً .. » ولا حاجة بي إلى اقول ان استقلال الشعب اللبناني ، في رأي حاك غريزا وفي رأينا ، انما هو تحرره ، تحرر جماهيره ، تحررها بكل معنى الكلمة ، بمعناه العميق الشامل : ذلك هو الاستقلال الامثل .

والآن ، قبل ان يمر حاك غريزا من معركة ازهر هذه ، وبعدما لي محاضرته الحصينة ، يؤذن لي ان احيي في شخصه الماضل ، شيوعيي الفرنسيس

والعالم اجمع ، طليعة حيش التقدم والمساواة والحرية .
إن مستقبل الانسان مدين لهؤلاء .
قلت : مستقبل الانسان !

منذ عام ، وإذا شئتم ان يصبح الحساب تاماً

وجب ان نقول : منذ عام واسبوع ..

من اين جاء ذلك الاسبوع ؟ لقد غاظنا جداً

ذلك الاسبوع . غاظنا من كل الوجوه .. لكن

يوسعنا ، وبوسعنا نحن وحدنا ، ان نفترض ان ذلك

الاسبوع لم يكن ، لسبب بسيط هو انه لا محل له

من الاعراب . فلولا ذلك الاسبوع ، ما كنا اليوم في

السابع من ايار . لولاه كنا حيث ينبغي ان نكون ،

اي في الاول من ايار ، نحتفل في الموعد المضروب ،

لعيد العمل والعمال .

لقد اردتم بملء ارادتكم ، بمحض اختياركم ،

ان يؤخر الاحتفال ، ضناً بهذا العيد المجيد ان

تشوبه اية شائبة ، ايا كان مصدره ، واين يكون مصيرها . ان كثيراً من الاعياد لا تنتظر . يجب ان يُحتفل لها في وقتها . والا لم يبق لها موضع او موضوع . اما عيد العمل والعمال ، وأول ايار ، فهو يعرف ان ينتظر . انه تعوّد الصبر الطويل . انه كقضية العمل والعمال نفسها ، يعرف ان ينتظر ، ويعرف ان ينتصر .

بدأ بعد انقضى عام ، بعد حتفلنا في هذا المكان ، لهذه المناسبة . عام ضخم سمين حافل باحداث لها ما بعدها . نكاد من اجلها نغتفر له الذيل الذي ألحق به الحاقاً ، او ألصق الصاقاً ، ونكاد نضرب صفحاً عن التأخير في موعد عيدنا .

في ذلك العام السعيد ، طرد الجيش الاحمر من الاراضي السوفياتية ، الوحش النازي ، وهو الآن

رافع يده الجبارة بنزل به الضربة القاضية .
وهكذا اعطى الاتحاد السوفياتي البرهان على ان
قضية الخلق والحرية في العالم باسره ، تمشي بخطى
سريعة ، بخطى محتمة ، إلى النصر المبين ، الى
النصر المحتوم . لقد اعطى الاتحاد السوفياتي على
ذلك آخر برهان ، لآخر المشككين ..

وفي هذا العام السعيد ايضاً تمكن الشعب
اللبناني من ممارسة شطر كبير من خصائص استقلاله
وسيادته القومية التي ظل محروماً منها ، خلال قرون
متطاولة . وهو يسير قدماً نحو استكمال سيادته
واستقلاله ، محمولا على جناحي تلك الروح الجديدة
التي تتجلى رغم كل شيء ، رغم كل الاشياء التي
لا يعتد بها ، في ارادة اللبنانيين الواعين المخلصين ،
على اختلاف طوائفهم واجناسهم ، ان يعيشوا معاً

ابناء شعب واحد حر ، في وطن واحد سعيد .
ونحن على يقين من ان هذه الروح ستبقى متجلية
في جهود اللبنانيين المتوافرة ، لحفظ كيانهم الوطني
وتعزيز كرامتهم القوميـة . كما انا على يقين من
ان هذه الروح الخيّرة تتجلى بادوع مظاهرها وانبلها
وانقاها ، في العمال ومنظماتهم الرشيدة .

لقد انقذ العمال الحرية في العالم ، فليس بدعاً ان
يُنتظر منهم ان يحفظوا الحرية في لبنان . ليس اول
ايار عيد العمال وحسب ، فهو ايضاً عرس الحرية .
وانما هو عرس الحرية ، لانه عيد العمال .

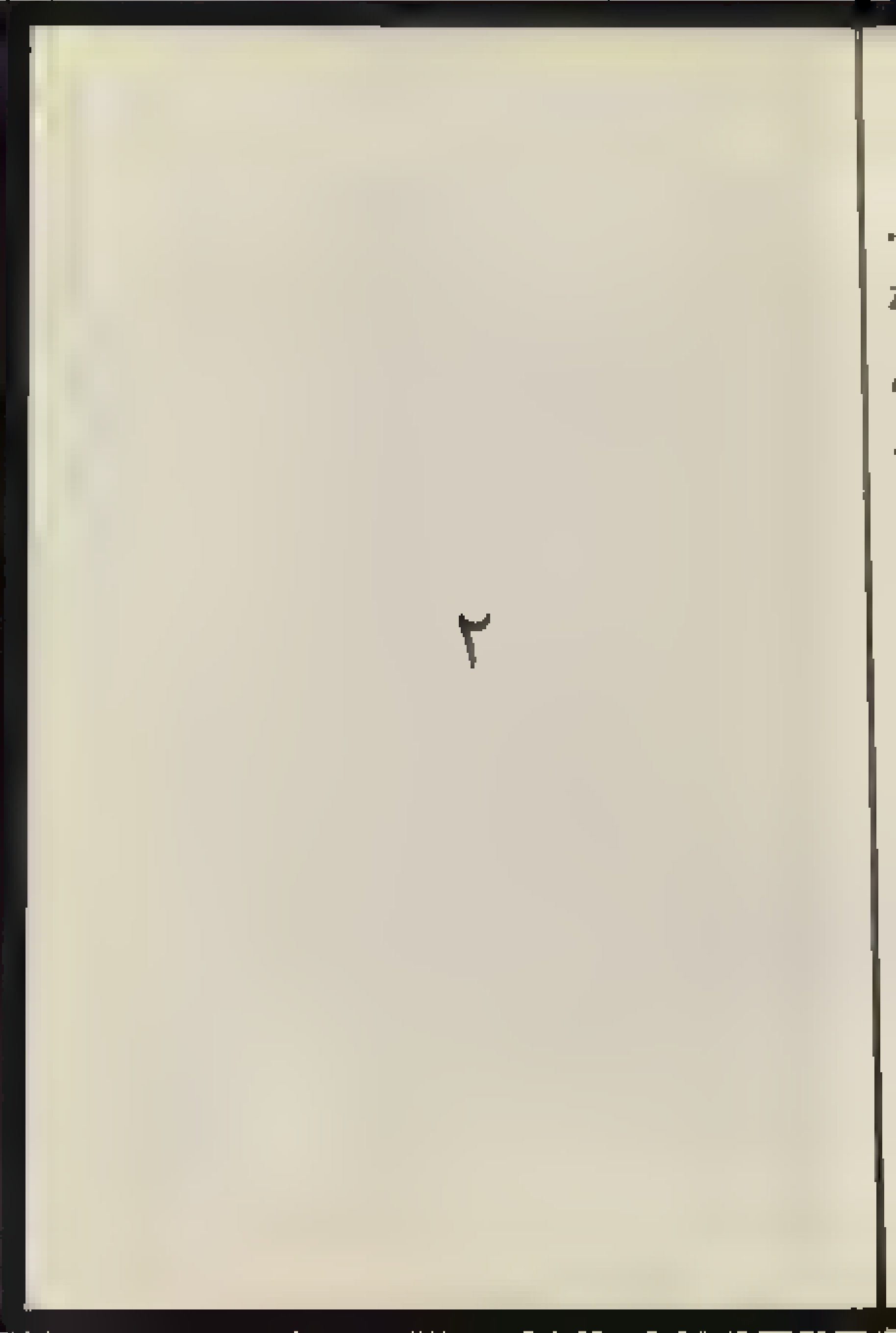

٢

.. وذلك — أيها السادة — صاحب الذكرى ،

كما ترون : لم تسر به الحياة على خط واحد ،
بل على خطوط عدة ، متوازية تارة ، متقاطعة تارة
أخرى ، تتناوب قصراً وطولاً ، شطر غاياتها ،
كمد البحر وجزره ، وفق ملابسة الدنيا ومناسبة
الزمن ، وإنه لمن سعد الطالع أن الوجود لم يتقيد
به ، كما يصنع بالخلق عادة ، على الوتيرة الواحدة
من سعد المنشد وسامعيه على السواء . لكن
التمحيص والتبسيط قد يصوران تلك السيرة ،
مجردة من الملابسة الدنيوية ، والمناسبة الزمنية ،
تدور على محوريها من القول والعمل ، من جودة

القول وصلاح العمل .

قال الشعر بالفصحى سالكاً الجدد ، وهواه العامية ؛ اشتها الحسناء غير الشرعية . عمل في الادارة « النظامية » لكن حنينه إلى هامشها . لظل حتى الموت .. وإنه لم يشغل الدهر حقاً ، هذا الاتصال البعيد الغور ، الأصيل عند الشعراء ، بين عبقرية القول وعبقرية العمل . ومشى مات على يقين بأنه حُرم كل شيء لأنه لم يُعط ولاية . وزنه دون ذاته ، تاجراً معسراً ، في أنكد عيش . ناهيك بأبي نؤاس ، ذلك الماجن الذي توعد في بعض شعره العصريّ حاذقاً . بأن « سيبغي الغنى ، إمّا جليس خليفة ، أو مخيف سبيل ..

لكنّ فتىً لا يُنتظرُ حالُه

إذا نوّهَ الرحمنُ باسم قتيل

يحمي مال الله من كل فاجر

أخي بطة ، شطبت اكول . . »

وكذلك بالشعراء يعيبهم الخلق بالكلمة ، في

دنيا الصور والفكر ، فيلوذون بدنياها ، يضعوا

طابعهم في طينتها المجبولة بعرق البشر ودمهم ، وهكذا

يهبطون من حقائق ، فيثأرون من انفسهم ، إذ

يحسبون انهم يثأرون لها ، وبالفضيحة !

على ان صاحب هذه الذكرى وُفِّق أخيراً ،

إلى التوفيق بين القول الجيد والعمل الصالح ، في

ذلك المزيج امنا « كنا للوطن » . فالنشيد اللبناني ،

ككل نشيد وطني نجح في الجماهير ، هو كلام

متجدد الروعة ، وفعال باقي الأثر . .

كنت افكر في الكتاب العربي . اقول : الكتاب العربي ، واعني . اللغة العربية . لكن ليس بوصفها أداة للعبارة عن ادراك الانسان وتصوره واحساسه ، شأن سائر اللغات — أداة وحسب — بل ايضاً عما تحتضنه تلك الاداة ، قديماً وحديثاً ، من روائع المنظوم والمنثور ، في كل فن ، ومن كل لون . ولا حاجة بي إلى القول ان تفكيري هذا لم يكن تفكير كاتب من الكتّاب ، بل تفكير قارىء من القارئين .

وكنت في الوقت نفسه استعرض ، عن غير قصد ولا روية ، بسرعة البرق الخاطف ، صوراً ناصعة وباهتة من حياتي ، في مختلف اطوارها

وبيئتها المادية والمعنوية . وانتهيت ، ولست أحد في ذلك غرابة ولا غضاضة ، إلى هذه النتيجة البسيطة المركبة على السواء ، وهي أنني ، بعد كل حساب ، مدين للمكتاب العربي بأرغد شطر من عمري .

لقد عرفت ، ككثير من خلق الله — من غمار الناس ، ولا مجال للتواضع الكاذب — حالات لذة وبهجة وهناء ، مما تيسره ، أو تغدقه علينا ، هذه الحياة الدنيا . لكن ما أعطانيه الكتاب العربي هو أشد غوراً وألصق بسويدائي ، وأكثر شمولاً وأبقى على الأيام ، وأصفى جوهراً وأسمى ، من كل ما عداه . وليس في هذا حكم إجحاف بأي حق ، ولا نكران لأي جميل .. كذلك أدخلت في الحسبان ، ومنذ البداية ، قضية « السن »

أيضاً .. سوى اني لا أعرف في حياتي من امهج وملاذ ما ليس يدرحه ، أو يعقبه كثابة الكأس ، شيء من الخيبة أو الندم أو الضيق ، خلا مباهج الكتاب وملاذه : الكتاب الجيد الذي تقرأه اكثر من مرة ، فكل مرة يزيدك لذة وابتهاجاً .

كنت أفكر في الكتاب العربي ، في متعته الرقية وجوهره الصافي ، لما جاءني نعي شيخنا الغلاييني ، رحمه الله . لا اريد ان استبق الحوادث فأذكر علامة بيروت وفقيد الأمة العربية ، كما هو اهله ، قبل ان تقام لاحياء ذكراه وتكريمها ، حفلة أو حفلات يتبارى فيها الشعراء والخطباء .. لا ، لكن هذا الكتاب العربي الذي كنت أفكر فيه ، ليس يفترق في ذهني — وفي ذهني خاصة — عن صورة الغلاييني وهو فتى .. هو في أول عهده

بالتدريس ، وأنا في أول عهدي بالدراسة . يعلمنا العربية فيجيد تعليما ، ويؤدبنا بها فيحسن تأديبا ، بكل ما أوتيه من معرفة وإيمان . إني — وكثير أمثالي في هذا البلد — مدين للشيخ مصطفى الغلاييني ، بنفيس ما عندي من معرفة وإتقان لهذه الصناعة ، ومدين له بما قد يكون خيراً من هذا كله : مدين له بالاضطلاع الأول ، بالدفعة الأولى . وإني لا أنسى كيف كان ، رحمه الله ، يعلمنا العربية وقواعدها ، في مؤلفاته وهي بعد مخطوطة ، في حيز التأليف ، قبل أن تصير « سلسلة الدروس العربية » المطبوعة والمتداولة في أيدي الالوف من الطلاب ، في جميع الأقطار . فكأننا كنا نحضر مولد تلك الكتب النافعة ، أو كان لنا في وضعها حظ .

منذ نحو ثلاثة أعوام ، نظمت وزارة التربية

والصوت الجميلة ، سلسلة محاضرات أذيعت من محطة بيروت ، في موضوع « الثقافة ومظاهرها المختمة في لبنان » . وقد طُلب يومذاك إلى فقيدنا الكبير ان يحدّث المستمعين عن اللغة العربية ونصيب لبنان منها . فألقى ، رحمه الله ، محاضرة قيّمة لا يزال اثرها في نفوس الكثيرين ممن سمعوها او قرأوا نصها . في تلك المحاضرة أتى الغلاييني على تعداد عشرات الاسماء لأعلام السابقين الذين كان لهم في تدريس العربية ونشر آدابها ، أوفر نصيب ، مستدئاً بالشيخين محمد الحوت وناصيف اليازجي ، ومنتهياً بالمعلمين جبر ضومط واحمد عباس الأزهري . وهذه اليوم في تاج العربيه الذي يزيّن مفرق لبنان ، جوهرة جديدة فريدة . رحم الله أستاذنا الغلاييني بقدر ما اشرب قلوب من محبة الكتاب العربي .

لخمسة عشر عاماً خلت ، كنت ازاول المحاماة
على طريقة خاصة .. أعني : أتمرّس بها كتمرّس أبي
الطيب المتنبي بالآفات ، لا المحاماة تنقاد إليّ صاغرة ،
ولا أنا أبشّ لها متزلفاً . وكنت ادعو الله سراً
وعلانية ، ان يصرفها عني باتي هي احسن ، كي لا
يكون من ذلك عليّ جدة ، ولا سيما عند الذين لا
شأن لهم معي ، وهكذا الناس ..

في ذلك الوقت العصيب اعارت مجلة « الكشاف »
بخيلها ورجلها .. وبين بكرة وضحاها احتلّت مكتبي ،
كأنها أُلهمت ان تملأ فراغه ، مخافة ان يطير . وإذا
قلت : « بخيلها ورجلها » فقد اسميت لا أكثر
ولا أقل – بهاء الدين الطاع مدير تلك المجلة ،

الذي كان والحمد لله ، بمختلف حركاته ، وجميع اصواته ، جيشاً وحده . لكن لم يكن لهذا الجيش اللجب من العتاد ، سوى قلب صادق شجاع ، وهو على ما يظهر ، دون الكفاية .

وكان امين الريحاني يعطف على الكشفية ، وكان هذا العطف يتجلى في أجمل صوره . مقالة يخصّ بها مجلتهم « الكشاف » كلّ شهر او شهرين ، لا يكاد ينقطع مدده . ولا حاجة إلى القول إن خير ما في اجزاء تلك مجلة ، كان فصولاً للريحاني من كتابه القيم « تاريخ نجد الحديث » قبل طبعه ، بذها سخاء واريحية لم اعرف لهما مثيلاً عند كبار مؤلفينا . لكن ظلت زمناً نفسي تحدثني وهي فخور ، بأنه انما يفعل هذا اكراماً لي ، ثم لم البث حتى علمت انه سخاء في الطبع واريحية في الفطرة ،

شد الريحاني ان يؤثر بها « القلب الصادق الشجاع »
على ان يثبت للملأ ان هذا وحده ، رغم كل
شيء ، قد يكفي احياناً .. واصبحت مجلة
« الكشاف » وهنا امين الريحاني ليس هنا إلا ه
ـ وكفى !

الآن ، ولكن ذلك العمر المجيد القريب سفينة
عصفت بها أهواء وأنواء لا أدري أيها كان أشد
هولاً ، وقد تحطمت السفينة وضاعت حوائجها بين
سمع الزمان وبصره ، تعود بي الذكرى
الدامية إلى الحقبة السعيدة ، هيهات أنا منها في
واحة السفر بلغ منه الظمأ والعناء .. في هذه الواحة
لا أفتأ أتمثل الريحاني ، كلما قدم بيروت من
صومعته في الفريكة ، مقبلاً علينا بوجهه الطلق ،
فلا يستقر به المجلس حتى يسأل متلهفاً : « كيف

اصحة ؟ » ثم يلتفت إلى الطّلاع قائلا بلهجة المعتذر :
« وبهاء ؟ كيف صحته ؟ » وترن في انحاء الغرفة
الضيقة ضحكة بريئة لا تخفظ فيها ولا سفه ،
عادلة بين السحر الطارئ والود المقيم . ثم
بهاء الدين فيكون مشغولا عن احوال ينتظر بعد
الذي يأتيه « أعجب الأحباب » في صورة مقالة
أو فصل من كتاب لم يطبع ، أو بعض فصل .

فمن تراث ذلك الزمن الرغد الذي نحمده اذكرى
اليوم ، حتى كأني لا أبارحه قيد خطوة أو شبر ،
وريقات معدودات بخط الريحاني ، لست أدري كيف
وإذا حفظتها ، منذ نشرت في أحد أجزاء « الكشاف »
سنة ١٩٢٨ . وها هي ، بعد ان لبثت في درجي
أعواماً كالأسماء المنسية المطوية في غيبة الذاكرة ،
تنبعث فجأة وتطفو كحطام لسفينة الغريقة بين

السماء والماء . صحائف خطّها قلم الريحاني ، واضحة مثل نفسه ، مستقيمة استقامة تفكيره ، بذلك الخط المعروف المألوف لدى أرباب الصحف في العالمين القديم والجديد خط وسط بين الترسيع والتدوير . وهنا ، على زوايا الوريقات الشيبة ، لطخ أسود من بصمات مرتّب الحروف الذي قرأها ، ولا بدّ ، مهتزّاً .. فأنا أيضاً ما زلت أقرأ هذه الصحائف بضرب من لتهجئة الذاهلة ، لست أنوم من معانيها ومقاصدها معنى أو مقصداً ، ولا أردد إلاّ بعضاً ... ثم تعلني الذكرى ، وترجع بي القهقرى ، حتى إذا كنت في ذلك الماضي ، علمت علم اليقين أني ما ادخرتها يومذاك ، إلاّ لهذا الاعجب الذي يعاودني ، الساعة ، ممزوجاً بالحنين .

تلك الصحائف مقالة عنوانها « في ربيع اليأس »

هي عندي من اروع ما كتبه الريحاني ، وابقاه على
وجه الايام . حكى فيها حكاية نفسه ، مهملاً
الفضول ، نابذاً القشور ، التي تلازم حياة اي انسان
مهما يكن عظيماً ، ولا سيما اذا كان عظيماً . ترجمة
حال بقلم صاحبها ، متبلورة ، صافية كالذهب
الابريز . بل لوحة رسم عليها المصور البارع خطوط
آرائه في المجتمع والسياسة والدين ، في المبدإ والمصير
وما بينهما ، وسط هالة من الذكريات الخاصة تنبض
احساساً ، وتفيض قوة ايحاء . في هذه المقالة « فتح
الريحاني   كما يقول   كتاب النص ، ليطلع
قارئه العزيز على صفحة من صفحات الشخصية
الخصوصية » . وهو كتاب لم يكن الريحاني ،
بوازع من لائمة الخيبة ، ليفتحه الا في النادر
القليل . وقد يخيل الي احياناً انه ، انشأ هذه المقال

امد ، خلال ازمة نفسانية لم نعرف مداها ، انتقل فيها من شتاء اليأس إلى ربيعه ، لكنه لم يخرج من اليأس : تتغير الفصول ، وتبقى الدنيا كما هي .
وكان عزاء الريحاني في تلك الازمة النفسية ان « يأسه – كما يقول – سلها لواليا من الاشواق والآمال .. وانه ، وهو المقيم في وادي الفريكة ، في هذا الزمان ، زهرة من يأس الانبياء ، زهرة نوّرت ، فذوت ، فتناثرت اوراقها ، ثم انتثرت من قلبها بذور الحياة ، حملتها الرياح الى النواحي الاربع من الارض » .
لا أعرف من ترجم للريحاني باصدق من هذا الكلام .

في الأدب العربي الحديث ما يصح ان نسميه
« المدرسة الاميركية » . ولعل هذه المدرسة ، في
اختلاط المحاولات ، وتوحي تيارات ، بزر مدارس
الأدبية الحديثة خصائص ، وأوضح مميزات ، سواء
أمن ناحية التفكير ، أم من ناحية التعبير . كادت
هذه المدرسة ، في الأدب العربي الحديث ، تكون
كالجزيرة الحائرة ، تبحث في عرض الاوقيانوس ،
عن ساحل تستقر فيه ، وتلتصق به ، وهي في الأدب
العربي ، على اصالته قديمه والحديث — أشد حيرة
وأي غربة . فكان لا يمكن من هم اصحاب هذه
المدرسة ، ولاسيما في نشأتها الاولى ، إلا أن يزرعوا
من الأدب في أرض غير أرضه ، بور ، لا حائط ولا

شحر ، كي يزدعوا هم ، ويزعموا الجدران . وقديماً اتهموا الشعب الاميركي نفسه بحداثة العهد في الآداب والفنون وستر أسباب الثقافة ، وزعموا ان لا ماضي له ، أي لا تقاليد .. لقد اتسم الأدب العربي في المهجر ، بهذه السمة ذاتها ، لا اكثر ولا أقل . وهي أحق أن نطلق عليه من صفة « الثورة » التي ادعاها ، أو نحلوه إياها .

يقول ريمي دي غورمون : « كل تبديل يطرأ على أدب أمة من الأمم ، فلا بد أن يكون ناشئاً عن علة خارجية » أو أجنبية . والأقرب إلى الصواب أن يعزى التبديل الذي طرأ على أدبنا العربي ، بتأثير أصحاب المدرسة الاميركية ، إلى هذا الضرب من العوامل . وهو في ألوان الشعور وطرائق التفكير ، أظهر منه وأبقى في أساليب الانشاء .

وأنماط التعبير . وإذا كان أدب المهجر كوّة أطل منها الأدب العربي على الدنيا الجديدة، فإن أصحابه قد جاءوا الأدب العربي من خارج .

انتهى الريحاني من وضع أول مؤلفاته « المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية » في ١١ تموز سنة ١٩٠١ . ويقول في مذكرات ذلك اليوم القصي :

« ولكن سوف لا أطبعها قبل ان أصير قادراً على تصليح لغتها بنفسي .. »

على ان السد الأول في برنامجه عهد ذاك هو ان يتعلم اللغة العربية وقواعدها في « بحث المطالب » .

منذ ذلك لعهد ألف الريحاني في العربية ، أكثر من ثلاثين كتاباً ، في مواضيع شتى وبأساليب مختلفة . وكان يوفق إلى افراغ كل موضوع في افضل أساليبه . فقد تطور انشاؤه خلال هذه الاربعين

عاماً التي حفلت بالدأب المتواصل ، والانتاج المنتظم ،
تطورٌ عجيبٌ . كان أبلغ الأثر فيه ، على ما نرجح ،
لرحلاته العديدة في الأقطار العربية ، إذ أصبح في
ما يكتبه ، متوجهاً نحو أكبر عدد ممكن من
الناطقين بالضاد . فازداد ترسله دقة وسلاسة ونبض
حياة بكل معنى الكلمة . لكن أمين الريحاني لم
يقطع صلته بالماضي تماماً ، فبقي هو ، بين رفاق
النشأة الأولى ، في « مدرسة » المهجر . وبقي طوال
عمره ، الكوة المفتوحة بين الشرق والغرب ، يدخل
منها النور . وتهب الريح .

أشياء كثيرة تذكرنا هذه الأيام بأمين الريحاني:

شتى لكن غير متنافرة ، حتى ولا متعارضة ، بل بالعكس . أولها الصدام الأضخم الذي يشهده العالم ويشهد نهايته بين قوى التقدم والرجعية ، لانشاء مجتمع جديد يتمتع فيه الأفراد والشعوب بأكثر ما يمكن من اليسر والحرية ، وقد كان أول كتاب أصدره الريحاني بالعربية عام ١٩٠٣ « موجز تاريخ الثورة الفرنسية » ثم استمر بقية عمره يناضل من اجل المبادىء التي اعلنتها الثورة الكبرى .

وثانيها مشي الشعب اللبناني قدماً نحو استكمال شروط السيادة والحياة الاستقلالية ، وقد كان الريحاني من أنشط العاملين ، بقلمه ولسانه ، في الحقل

الوطني ، نلمس أثر ذلك في كل ما كتبه وأذاعه .
وثالثها منشورات التعاون العربي الذي كان الريحاني
من أصدق الداعين إليه ، والساعين له ، عن الطريق
المثلى ، طريق التعارف بين مختلف الأقطار العربية ،
يعرّف العرب بأنفسهم ، ويُعرّف بعضهم إلى بعض ،
في مؤلفات قيّمة ممتعة ، من « ملوك العرب » إلى
« قلب لبنان » آخر كتاب له لم يتمه . وأخيراً
هذا المهرجان الألفي لمولد أبي العلاء الذي كان
الريحاني سبّاقاً إلى نقل مختارات من شعره في ترجمة
انكليزية جيدة ، ينتقل القارئ الغربي بها إلى جو
« اللزوميات » وكانت هذه الترجمة أول مؤلفاته
بالانكليزية سنة ١٩٠٣ .

ان أمين الريحاني توفي في الثالث عشر من ايلول
سنة ١٩٤٠ . وقد كنت ونفراً من اخواني ،

تعودنا أن نقول ، في مثل ذلك اليوم من كل عام ، كانت تعرض فيه ألواح من هذا الذهن الفريد الذي لو أتيح له أن يعيش سنين معدودات ، زيادة عما قدر له ، لرأى بعيني رأسه تحقيق تلك الأشياء العزيزة عليه ، والتي كانت بعض أمانيه الغالية . على أنه يوسعنا أن نقول إن أمين الريحاني لم يكن غائباً ، لا عن مشاورات التعاون ، ولا عن العيد الألفي ، فضلاً عن المراحل التي تجتازها لبنان نحو التمرس بحكمه الوطني الديمقراطي الصحيح .. ليس الريحاني بغائب تماماً . فما أكثر ما اقتبسته الصحف ، هذه الأيام ، من مؤلفاته النفيسة عن الأقطار العربية ، حتى كأن هذه المؤلفات مرجعها الوحيد . وبهذا الرأي ارتآه شقيق الريحاني ألبرت ، فقد أصدر في

أيلول من هذا العام، طبعة رابعة من ترجمة
«الروميات» الانكليزية، مساهمة في إحياء ذكرى
المعري. وهذا كل أمل الرجائي به بقيّة، برغم
الموت، تكرّم شعره العربي الخالد، فمن يدري لنا
نحن الأحياء [illegible] الناطقين من بني قومنا، هذه
السنة أيضاً، بأن نرغب في [illegible]
كل صيغة التعاون الفكري الذي تتأجج به الألسنة،
وتُعقد له المؤتمرات. كما أن رجائي [illegible] إلى تعاليم
طرائف من آراء المعري وحدوده بالانكليزية، [illegible]
[illegible] كل حين أنموذج لحدث الإشعاع
الإنساني الذي يتجلى في مظاهر متنوعة، ليست
الكتابة نثراً وشعراً بالنعوت الأجنبية أضعفها شأناً،
ولا أقلها حظوة. إن الإنساني [illegible] موضع التغرب،
تغريه به عوامل عديدة وأصيلة. التغرب مادة

ومعنى، بالجسد والروح، للأخذ والعطاء. هكذا كانت حياة الريحاني رحلتين اثنتين: رحلة إلى الشرق ورحلة إلى الغرب، وتبقى الفريكة مرفأه الأمين، وحصنه الحصين.. كاد ريحاني، في سيرته وفي كتابته، أن يكون رمزاً.

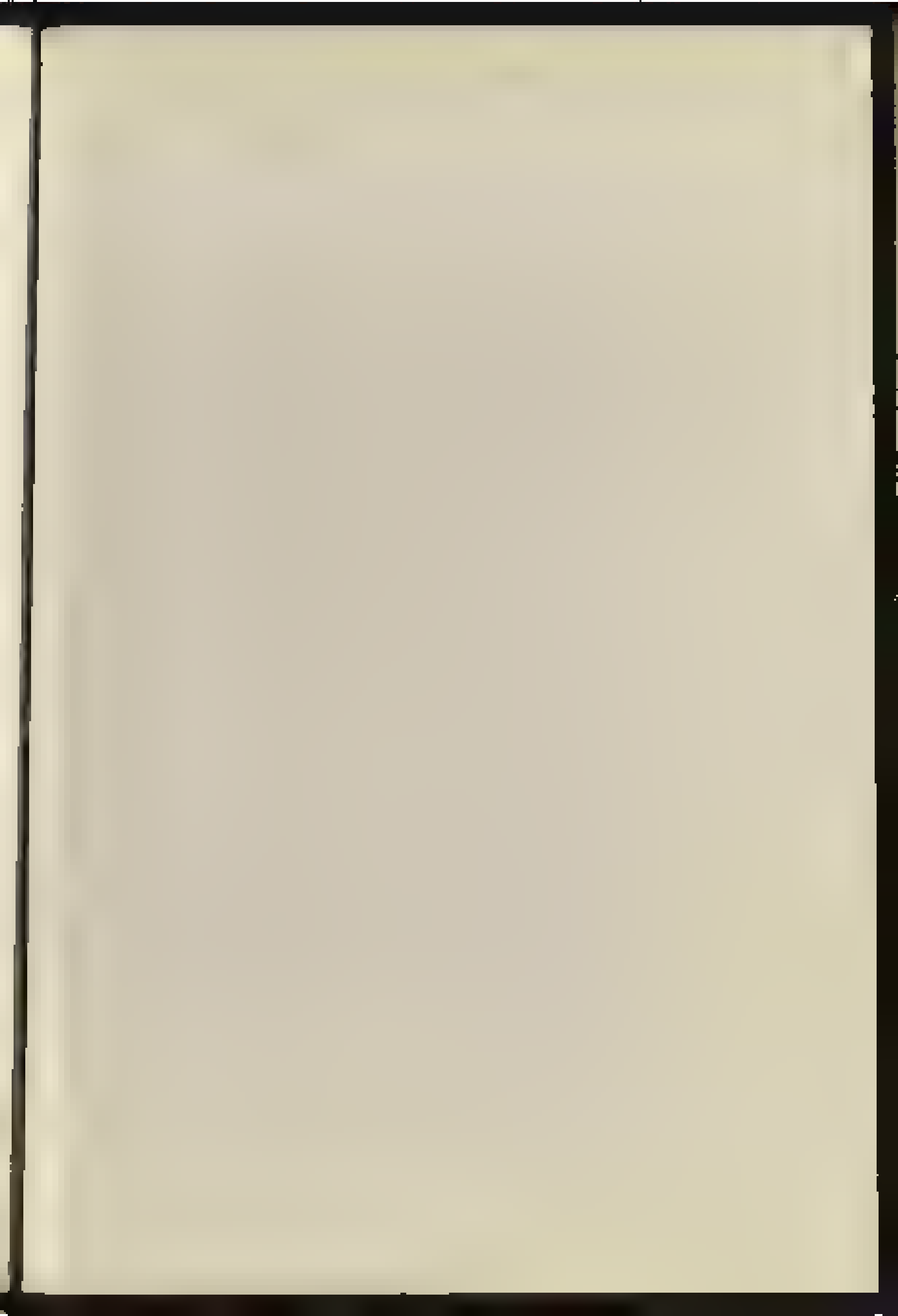

٣

كنت ذات يوم ، اختار بعض الشوارع ، لا ألوي على شيء . . لم يكن من همي ، في تلك الساعة ، إلا أن اسرع الى الترام ، وحده قبل رحمة الغروب ، إذا بعبارة تصك سمعي كالمفاجآت العربية ، قيلت بما يشبه الهمس ، لكنها « سلطت » على ذلك المزيج الصخم من أصوات ، الذي يسمونه : ضجة المدينة . سمعت قائلا يقول : « لا . . بعد الاستقلال » . وكانت اللهجة التي قيلت بها هذه العبارة لا تخدع : تدل على ان قائلها يريد ان يؤرخ امراً من الامور ، حدثاً من احوادث ، اي ان يضعه في موضعه من الزمان . فهو لا يذكر اليوم ولا الشهر ولا العام ، كما جرت العادة ، لكن

يؤكد أن الحدث كان « بعد الاستقلال » . وبالطبع
لقد التفتُّ ورائي كي أنظر إلى « مصدر » هذا
التاريخ الجديد الذي جاء يدوس الطوفان والميلاد
والهجرة ، في الخط البشري . ورأيت رجلين مثلي ،
مثل كل الناس ، يتحدثان في شأن من شؤونهما
اليومية ، وقد احتدا على الرصيف ليس غير . وقال
أحدهما : في الأسف كان يطلب لآخر بدين ،
قائلاً له : « هذا مطلب وقضيت .. » فيجيبه الآخر
مستنكراً : « لا .. ذلك كان بعد الاستقلال » .

ليس من قصدنا هنا أن نفصل في هذا الخلاف
بين هذين المتحدثين على رصيف الشارع : الدائن
والمدين . إن الدائن محق بحاول وقوع صحبه بال
استقلال بعقود ، لأنه سبع من العمر بضعة أشهر
(وهو عمر الكمبيالات الطبيعي) . وأما المدين

فتقاعس ، يحاول إيهامنا بأن ذلك الاستقلال هو ابن اليوم ، أو على الأكثر ، ابن الأمس . لأن حياة الأمم لا تقاس بما تقاس به عمر الأفراد ، شهراً وشهراً .. ليس من قصدنا الفصل في هذا الخلاف الذي قد يهم وقد لا يهم ، حسب وجهات النظر ، كما هو شأن الدائن الملحاح والمدين المتقاعس ، شأنهما على السواء ، وشأن كل طالب وكل مطلوب . لكن ، ما لا خلاف فيه هو أن هذا النبأ « الاستقلال السياسي » قد أحدث في الأذهان ، ولاسيما أذهان العامة ، أثراً سيئاً ، حتى صاروا يؤرخون به شؤونهم اليومية . وأكبر الظن أن السبب الأساسي في هذه النتيجة هو أنهم ساهموا في « الاستقلال » مساهمة ذات وزن ، اشتركوا فيه اشتراكاً جدياً ، كانوا إلى حد ما ، مادته الحية .

فالاستقلال اللبناني ، هذه المرّة ، لم يكن حدثاً عرضياً عن اللبنانيين ، يقرَّر فقط في الأوساط العليا والدواوين ، أو يُثبت في العهود والقراطيس . لا . قد كان يفترض وبالدرجة الأولى ، صنع الشعب اللبناني . صنع روحه ودمه . وليس هذا بالأمر التافه أو اليسير .

سوى انه بقي شيء . بقي أن لا تفقد الثقة بين العهد الاستقلالي والشعب اللبناني ، ان لا تنقطع الصلة بينهما . بقي ان يستمر هذا الشعب على رجائه في ان يكون هذا العهد له حقاً وصدقاً ، وليس لأفراد منه ولا لفئات . ومتى قلنا : « العهد الاستقلالي » فقد قلنا : « الوطن اللبناني » الذي يريده أبناؤه حرّاً سعيداً ، بهم حيناً ولهم حيناً ، كي يؤرخوا دائماً ، شؤونهم اليومية ، بيوم من أيام السعد ..

ويمكننا القول ان لبنان ، خلال فترة ما بين الحربين ، لم يتمرس بسوى تجربة واحدة ، لم يعرف سوى عهد سياسي واحد . ولا بأس ان كانت الفترة دامت حوالي ربع قرن ، وان ذلك في زمننا الحديث سريع ، بأبعاده القصيرة .

نحن لا نزعم ان الشعب اللبناني لم يكن ، طوال هذه المدة المديدة ، منطويا على اية رغبة ملحة او وثابة ، في ان يستبدل بتجربته تلك غيرها ، او في تخطي ذلك العهد السياسي إلى غيره ، إلى ما هو خير منه . لكن الواقع انه لم تبدر منه اية حركة رفيقة او عنيفة ، صائبة او طائشة ، تستهدف التغيير والتبديل . حتى لقد كان يخيل الى الناظر ان

لبنان جامد ، بينما الارض تدور ، او هو على الاقل واقف ، بينما الاقطار المجاورة تحرك ارجلها تحفزاً للمسير ، بل اخذت تسير .

ترى ، هل غاب على ظن لبنان الذي أصبح ، بين الحرب العظمى الماضية وفي شدتها ، نظراً كانوا ، بلا مراء ، في مقدمة ذلك الجيش الباسل النبيل ، جيش الدعاة الى التحرر القومي ، والمجاهدين في سبيل الاستقلال الوطني .. ترى ، هل غاب على ظن لبنان انه قد بلغ أخيراً الغاية ، وسيستراح ؟

لا نظن ذلك ، بل كل شيء ينطق بعكسه .

فى ما أوتيه الشعب اللبناني من أصالة التهذيب وشيوع الثقافة ، ومن النضج الاجتماعي والوعي السياسي ، كفيل بان يدفع عنه تهمة ، تهمة النوم .. وأي نوم ؟ على الاكاليل من غار مستعار ،

ومستعمر بالمعنيين .. لقد سنحت للشعب اللبناني فرصة سعيدة مواتية ، فاثبت ان جميع تلك المؤهلات فيه لم تذهب ـ ولا يصح ان تذهب باطلا : المؤهلات للتمرس بتجربة سياسية جديدة ، في هذا العهد الاستقلالي لدي نحن الآن فيه . لم يذهب باطلا ولا يصح ان يذهب باطلا ، ان لبنان بقي عصراً وبعض عصر ، في طليعة الاقطار العربية ، نهضة علمية وادبية واجتماعية ، وفي الطليعة ايضاً حركة « تحررية » جماها امام الشمال . لم يذهب باطلا ، ولا يصح ان يذهب باطلا . ذلك الاشعاع المعنوي الذي يتنصص بالهجرة ، والاقامة ، ثم بالسوع . الجهات الاربع من الارض .

ونحن اذ نقول هذا ، لا نقوله ، يشهد الله ، تبجحاً او تزيداً . بل ولا تلذذاً بالسبا المسرح الدي

يحلو بالاستعادة . انما نقوله كي نتناول لانفسنا كيف ان لبنان ، وفيه تلك المؤهلات الاصيلة القيمة ، ومنه ذلك الاشعاع المتصل المتعدد ، ظل في سنيه العشرين الاخيرة ، بينما كانت الدنيا تدور ، ولاقطار الجاورة تسير .. ظل واقفاً على « سياسة » وقوف شاعر على الاطلال ..

سوى ان لبنان بحاجة إلى اصالة فكر او رؤية ، كي نعود ذلك جميعه الى سببه الواحد المباشر ، وهو ان سياسة كان خلال الفترة الخرساء ، ولنسم الأشياء باسمائها — منقسماً على ذاته . وكان كل من حزبيه لاثنين يشعر نحو الآخر ، ببعض الحذر وبكثير من الوحشة . والحق على صعيد الوطنية انصرف ، يبطل الحذر وتزول الوحشة . « وقد يجمع الله الشتيتين .. »

تجوس الأحاديث، هذه الأيام، خلال الحركة العربية: ماضيها أو حاضرها. ولاسيما ماضيها. ان «الحركة العربية» تسمية عامة مطلقة يكتنفها شيء من الغموض، كسائر التسميات التي تدمغ بها التطورات السياسية القومية، قبل ان تتبين حدودها ومعانيها، أو تتبلور مدلولها الأخير الذي تستقر فيه على حال. ولكن مهما يكن من أمر، فثمة شيء ثابت يقين، لا خلاف فيه، ولا إبهام حوله، هو النشاط الفكري والسياسي الذي استهدف، في سياق تاريخها الحديث ولا يزال، بالدرجة الأولى، استقلال الأقطار العربية، وبالتالي، توثيق الروابط على أنواعها، بين هذه الأقطار.

وبديهي أن النقاش لم يتناول هذا الموضوع الحيوي ، إلا بملاحقته المباشرة لما تعاقب من مفاوضات في الأشهر الأخيرة ، بين أقطاب السياسة العربية في جانب ، وبين زعيمه مصطفى النحاس باشا في الجانب الآخر . وقرب هذه المدة وصلت عهداً ، أمس بنا في الوقت نفسه صلة ، بمفاوضات المباحثة المصرية الإنكليزية .

لقد درجت الصحف المصرية ، والبلاغات الرسمية أحياناً ، على التعبير عن تلك المفاوضات باسم « المشاورات » . فهم يقولون : مشاورات الوحدة أو الاتحاد أو التعاون وهلم جرا . . ولما كانت القضية العربية متقدمة على كل هذه التعابير . فلا يفسر استعمال لفظ « المشورة » هنا ، إلا بأن رئيس الحكومة المصرية (السابق) هو الذي اتخذه ، بل وهو

الأصح ، « استأنف » تلك المفاوضات العربية ، إذ ظلت يقوم بها على التوالي ، مع رجال الحكم أو ممثلين لهم من سائر الأقطار . وعلى كل ، فإنه لمما يسترعي الانتباه والتقدير ، أن تصبح مصر قطب الرحى في هذه المفاوضات ، رغم عدم سبق الشقيقة الكبرى إلى اعتناق مذهب القومية العربية ، والدعوة له . على أن هذا لم يكن سوى نتيجة طبيعية لبضعة عوامل ، أهمّ في رأسها أن الحركة الوطنية في مصر بحكم وضعها السياسي وظروفها الخاصة ، قد ظلت زمناً وهي تستند في شخص أحد قادتها أو روادها : مصطفى كامل باشا (مثلاً) إلى ارتباطها بالسلطنة العثمانية (في الوقت نفسه ، دار الخلافة أو الامامة العظمى) أو على الأقل تحتج بهذه الرابطة ، بينما كانت الأقطار العربية الخاضعة عهد ذاك ، لتلك

السلطنة ، تعاني من جراء تلك الرابطة بعينها ، ضروباً من الاضطهاد القومي دفعتها دفعاً عنيفاً في سبيل المطالبة بحقوقها المشروعة ، كقوام متميزة بخصائص ، متفردة بمصالح ، ثم إلى محاولة الانفصال عن ذلك الجسم « الخليط » ، في كيان سياسي خاص يستقل بادارة شؤونه ، وحكومة ذاته . وقد أتى زمن لم يكن يُنظر فيه ، بعين الرضى أو الارتياح في مصر ، إلى « حركة » الملك الشريف حسين « العربية » لعلة خروجه على الخليفة العثماني ، كما انه لم يكن يتردد على الألسنة والاقلام ، من التعابير الدالة على التكتل ، سوى « الجامعة الاسلامية » في الكثير الغالب ، و« الرابطة الشرقية » في بعض المناسبات . لكن ليس في وسع أحد ، نكران ما

تنطوي عليه جميع تلك المظاهر ، من نزعة استقلالية
مصرية . وهكذا فلا يُعدُّ من قبيل التبجح قولنا
الآن ، ان السوريين واللبنانيين ، سواء أفي مواطنهم
أم في مهاجرهم ، وسواء أفي الحقل النظري أم في
المضمار العملي ، كانوا الى عهد غير بعيد ، طليعة
العاملين على صب الحركة الوطنية الاستقلالية في
البلاد العربية ، في بوتقة « القومية الصرف » التي
لا غبار عليها من التفرقة الدينية ، أو الصبغة
الاقليمية . . ليس في قولنا اثر للتبجح ، فذلك حدث
تاريخي – طبيعي – حتمته ظروفنا الخاصة ووضعنا
السياسي والاجتماعي ، في داخل البلاد وخارجها .
لكنه على كل حال ، مما يحمل على الابتهاج ،
ويبعث على التفاؤل ، لأن التكتل في العالم إنما
يستوحي في تطوره الأخير ، هذه المبادىء ،

ويمشي إلى هـذه الغايات : ان عالم الغد سيكون
عالم القوميات الحرّة المتضامنة .

ليس من الضروري ان يتفلسف أحدنا ، أو ان يتعرّض لتهمة « التفلسف » ، بل ليس من الضروري أن يكون على رأي من الآراء ، أو مذهب من المذاهب ، في التاريخ والاجتماع ، كي يدّعي بأن للعامل الاقتصادي شأناً أساسياً في حياة الأفراد والجماعات ، يتناول جميع مظاهر حياتهم ومقوماتها . ان أهمية هذا العامل صارت من البروز والوضوح والشمول بحيث يكفي « العقل العصري السليم » ان ينظر ويفكر فيما حوله ، فيما هو فيه ، حتى يذعن لحقيقة أو لضرورة تفرض كل هيبة نفسها ، ويذكر كل شيء بها ، في الدائرة الأوسع فالأوسع ، وها نحن أخيراً محشورون في تلك الدائرة العالمية

الكبرى ، أو الشبكة المتكاثرة خطوطاً ، المتداخلة المتعاكسة إلى أقصى حدّ . ولقد كان هذا الشرق الأدنى والأوسط وبوسعنا أن نسميه : الشرق العربي – يؤلف في ماضيه السحيق والقريب على السواء (وفي حاضره أيضاً) جزءاً من الأجزاء « الممتازة » بتعقده ، في الشبكة العالمية الكثيفة ، تتمدّد فيه الخطوط ، متداخلة متعاكسة . وأكبر الظن أنه سيبقى كذلك ، حتى يقضي الله أمره . . فنحن نسنا على مفترق الطرق ، طرق النزهة والاصطياف ، أو الزيارات الدينية والأثرية ، بقدر ما نحن عند مصطدم المرافق والمصالح الدولية الاقتصادية العظمى . ومن المؤرخين الذين يؤمنون بخطر العامل الاقتصادي ، بأهميته الأساسية في أحداث التاريخ الحسام ، حتى هذه التي لا تمتّ في

ظاهره الى الشؤون أو العوامل « المادية » بسبب
— لا تمتّ اليها في الظاهر فقط — من اولئك
المؤرخين نفر كانوا يطلقون على الشرق الادنى
والأوسط ، هذا الاسم الشعري : « الهلال الأخضر »
وبالطبع يعنون : الخصيب .. الهلال الأخضر او
الخصيب الذي تنتظم أقبيته أرضَ الرافدين ووادي
النيل ، ثم ما يتصل بها ، أو يقع بينهما ، من
حاضرٍ وبادٍ . وان اولئك المؤرخين ، وهم أبعد الخلق
عن التنجيم ، ليعزون إلى الهلال الأخضر ، بعض ،
بل أكثر ، بل كل الحركات أو الأحداث التاريخية
الكبرى التي لا يندر أن تنشأ ، أو تتولّد في أقصى
الأرض ، ولاسيما بعد ان انطوت الصحائف المشرقية
من سفر الانسانية الكبير .. فمن لي الآن ، من
يُقرئ عني وعنك السادة المؤرخين السلام ؟ من

لي بن يقول لهم — على الماشي أو على الطاير ، كيف يشاء . ان الهلال ، ولله الحمد ، لم يزل الهلال الخصيب ، بل لم يكن في زمن أخصب منه اليوم . سوى انه كان الهلال الأخضر ، فمسى الأسود ، وكان الهلال ذا الاقنية ، فمسى ذا الأنابيب . لكنه لم يزل ، بفضل النفط العربي ، الهلال الخصيب ، ينتظم هذه المرة ، الجزيرة وشبه الجزيرة ، وما يتصل بها ، ويقع بينهما من حاضرة وبادية .. لم يتغير شيء ، أو لم يكد : قد « اصطلح » التاريخ والجغرافيا على ان يجعلانا دائماً وابداً ، في احدى النقاط المركزية الممتازة الحساسة من التقائهما ، بل من اشتباكهما .

ولا يحملن أحد كلامي هذا ، على محمل تهجم أو تشاؤم ، ولا تذمر أو تسكر . فهذا النفط قد

ظهر في شبه الجزيرة ، حيث تقوم الدولة العربية السعودية ، وهي أقرب الدول العربية الى تحقيق مثلها في الاستقلال او السيادة بدواعيها . كما انه قد ظهر في عهد ميثاق الاطلسي وتضامن الشعوب ، كبيرها وصغيرها ، صغيرها وكبيرها . عهد يبشر بحق الامم المغلوبة على أمرها ، حريتها واستقلالها ، على اساس من مصالح العدالة والمساواة ، ومن يدري ؟ فامن انقطاع الحرب يحدث في حياة هذا الشرق ، انقلاباً من أعظم الانقلابات التي عرفها تاريخه .. على انه في كل حال ، جدير بأن يرسل منذ الآن ، على المشاورات العربية " نوراً ساطعاً " ثم بأن يدفع اكثر من اي عامل آخر ، بالتعاون بين الاقطار العربية ، مهما يكن من شكله ، خطى واسعة إلى الامام .

لا أحسب ان احداً تأخذه الدهشة إذا قلت

إن شغل اليوم الذي لا شغل سواه في لبنان، هو الاستقلال. ولن تأخذكم الدهشة، كما ان لم تأخذنا نحن الحيرة. فالاستقلال كلمة لم يعرف لها لبنان في الأيام الأخيرة همساً، بل هتف هتافاً.

ليس لبنان عظيماً في رقعة الارض، ولا الشعب اللبناني ضخماً بين الشعوب، لكن لبنان مشى قدماً نحو حريته واستقلاله، في مزدحم الامم الضخمة والدول العظيمة، في سباق تدرجه الدامي، حتى صار له من المؤهلات، ما يجعل ممارسة هذا الحق، كالنتيجة الطبيعية المتحتمة، ثم اصبح حق «الطبيعي» حقاً شرعياً او رسمياً إذا صح التعبير،

عا قطعته الامم الحليفة على نفسها ونحو لبنان ، من مواثيق وعهود .. كذلك لم يكن لبنان على خطإ ، إذ وقف منذ البداية ، في صف الديمقراطيات الكبرى التي اعلنت على النازية ، وهي شر أنواع الاستعمار ، حرباً لا هوادة فيها ، وقد ساهم لبنان في هذه الحرب ولا يزال ، مساهمة ذات وزن ، وإذ أدى لبنان ، المقيم والمهاجر على السواء ، قسطه في الجهاد ، عن طيب خاطر ، موفوراً غير مضنون .

وليست اول مرة يهتف فيها الشعب اللبناني لحريته ، ويتنادى لاستقلاله ، وينتصب لكرامته . فهذه الالفاظ الشريفة : الحرية والاستقلال والكرامة ، لم تكن غريبة على حوننا الفطري والعملي .. لا ، لكن يخيل الينا ان لهذه الالفاظ اليوم ، صدى بل معنى جديداً ، كأنما كانت في الهواء ، فداخلت وجدان

الامة القومي ، بل كل الحرية والاستقلال والكرامة كانت تعني عند فريق شيئاً ، وعند فريق شيئاً آخر ، فاذا بهذه الالفاظ تسترد اليوم معانيها الصحيحة السليمة ، فتأتلف وتنسجم في فكر واحد ، وشعور واحد ، او بكلمة : في « كيان » واحد . ذلك هو المغزى الجديد الرائع لحركتنا الوطنية الاخيرة . كأنما ولد الوطن اللبناني واستقلاله في وقت معاً .

كان من الممكن ، وسط النزاع الضخم الذي

يعانيه العالم منذ خمس سنوات ، كلّ يوم مرنا حافل

باحداث عسكرية او سياسية خطيرة تتوقف عليها

إلى حدٍّ ما ، نتيجة هذه الحرب الكونية العظمى . .

كان من الممكن ان يقع الحدث الثاني او ما

يشبهه ، ثم ينقضي دون ان يثير في انحاء المسكونة ،

ما ملأ الآذان من اصدائه المدوية المحزونة المدهشة .

ذلك ما كان ، لأول وهلة ، ممكناً او منتظراً ،

ولاسيما عند من ينزع فكره الى تبسط الاشياء ،

او يكتفي بظواهر الامور . فاذا بالحدث الثاني ،

على الصمد ، يشغل حيزاً « محترماً » من مشاغل العالم

الكبرى ، وإذا باخباره تصطدم على موجات الأثير ،

واحدى المعارك الطاحنة في مختلف الميادين ، حتى قال بعضهم ان لبنان ، في تاريخه الطويل ، لم تتداول ذكره الالسنة والاقلام ، بمثل ما تداولته في هذه الايام .

فكيف كان ذلك ؟ ما هو العامل الذي جعل لبنان ، خلال هذه الازمة الكونية العظمى ، في هذه الحقبة القصيرة – الحاسمة – من تاريخه الحديث ، ملء الاذهان والاسماع ؟

لم يكن ذلك على ما نرى ، نتيجة عامل واحد ، بل نتيجة عوامل متعددة . ومن في رأس هذه العوامل ، لعل اول ما يتبادر منها الى الذهن ، تأثير ظروف الحرب العالمية ، ان العلاقات بين الامم والبلدان ، بل بين القارات ، اصبحت من التوثق والتداخل والاشتراك بحيث يكاد العالم باحزانه

المتباينة مهما تباينت ـ يؤلف وحدة دقيقة الاحساس ، لم تكن في زمن ادقّ منها احساساً ، كالجسم الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعت سائر الاعضاء . ويزيد هذا الواقع وضوحاً وبروزاً وتمكّناً ، أن العالم المحترب اليوم يعيش في جوّ لا عهد له به ، او بكل عناصره ، هو الجو الذي اوجدته الحركة التحرّرية العامة ـ العاصفة بالافراد والشعوب ـ التي تستهدف خلق عالم جديد ، تقوم فيه العلاقات بين الافراد ، وبين الشعوب ، على اسس اقرب إلى الانصاف والحق والخير . وفي جوّ عالمي كهذا الجو ، لم يكن في الامكان ان يبقى الحدث اللبناني حدثاً لبنانياً وحسب . وهكذا كان الحدث اللبناني حدثاً عالمياً أيضاً .

وثمة عامل آخر ، لكنه خاص بلبنان ، لا يدرعه

فيه منازع ، يصح ان نسميه « الاشعاع اللبناني » .
تلك المزية التي عُرف بها لبنان ، من اقدم عهوده
التاريخية ، والتي يصعب معها الادعاء بأن لبنان
منحصر ضمن حدوده الجغرافية . فالابجدية هي
من الاشعاع اللبناني . ومن الاشعاع اللبناني أيضاً
هذه المادةُ البشرية التي لا تفتأ تمدي بالهجرة ، كل
بقعة من بقاع الارض ، حتى ليمكن القول ان
لبنان شبكة مطروحة على العالم تنتظم أجزاءه ، بل
هناك لبنانان لا لبنان واحد : لبنان المقيم ، الرابض
بين تخومه ، ولبنان المهاجر ، الموزّع في الدنيا .
ونحن على مثل اليقين من انه قد كان لهذا
العامل الاخير ، في جعل الحدث اللبناني حدثاً
عالمياً ، اعظم الأثر : نعني ان لبنان مدين في الدرجة
الاولى بنفسه .

بضع سنوات خلت ، اتخذ فريق من أبناء
هذا البلد ، موقفاً صريحاً في صف الامم المتحدة ،
وجعلوا يشتغلون تارة في « مكافحة النازية والفاشية »
وتارة أخرى في « مصادقة الاتحاد السوفياتي » أو في
كلا الامرين ، في وقت معاً . ولقد كان يخيل الى
اكثر العوام ، والى بعض الخواص ، ان هؤلاء النفر
ليسوا سوى شعراء يعيشون في المريخ ، أو تجار
تخصصوا للبضاعة الاجنبية .. أي انهم ، في كل
حال ، مصابون بنوع من الانحراف الفكري أو
المسلكي ، يصرفهم عن الحركة الوطنية الصحيحة
التي يتمخض بها لبنان وسائر الاقطار العربية .

لست أدري ولا يهمني كثيراً ان أدري —

ـه يقوله الخاصة الآن . لكن احب ان اعتقد ان العامة - اي السواد الاعظم - قد غيروا شيئاً من رأيهم ، وعدلوا بعض انحرافهم ، بتأثير تلك الخبرة المباشرة للحدث النفسي الاخير ، الكبير ، الذي كانوا هم مادته الحية ، بلا مراء .. فالحركة الوطنية الاستقلالية في لبنان ، بما احدثته من ردّ الفعل في النفوس المكبوتة ، وبما احرزته من توفيق في الصعيدين العربية والعملية ، قدمت الدليل — دليلاً جديداً . على ان اولئك « الشعراء » لم يهاجروا إلى المريخ في حين ، او ان اولئك الجبار لم يتعصبوا يوماً « الصنعة الاجنبية » . لقد كشفت هذه الحرب العصبية عن ثلاث او اربع حقائق كانت غامضة ، وكان يزيد في غموضها تعامي اهل النظر

عنها . واقرب تلك الحقائق الينا عهداً ، وامسُّها بنا صلة ، هي ان لسان جزء من العالم ، فلن يسعه ان يخرج منه ، وان مصير لسان متوقف إلى حد بعيد ، على نتيجة الحرب ، فما من سبيل إلى فصل مصيره عن نتيجتها ، ان هذه الحرب العالمية كانت حربنا ، كما ان السلم العالمية ستكون سلمنا نحن ايضاً . تلك « حقيقة لبنانية » لا يصح ان نغفلها او نتغافل عنها ، فما من شيء في العالم لا يعنينا ، سواء أرضينا ام لم نرض ، وعلمنا ام لم نعلم .

على ان تلك « الحقيقة اللبنانية » التي اشرت اليها ، ليست في الواقع الا انعكاساً لهذه « الحقيقة العامة » المزدوجة ، التي اصبحت من الوضوح والقوة بحيث يصعب نكرانها او تجاهلها - نعني ان الحرية في العالم هي ، كالسلم ، وحدة لا تقبل

التحرئة . فمن ميثاق الاطلسي الى مؤتمر طهران ، نرى الخطوط التي سيتألف منها عالم الغد ، ترتسم في أفق الوجود ، بأحلى فأحلى ، وأبرز فأبرز . ولا يدهشن احداً قولنا اليوم ان اشتراك الاتحاد السوفياتي في ذلك « التكوين » الجديد يعتبر ضمانة جديدة متينة العرى . فالاتحاد السوفياتي قد بنى سياسته الداخلية والخارجية على اصرح مبادىء الحرية القومية . ناهيك بحركة التحرر العاصفة بضمائر الشعوب وعزائمها ، في مشارق الارض ومغاربها .

نحن لا نحب أن نحشر في زمرة المتفائلين الحمقى ، كما اننا لا نرضى ان نعد في المتشائمين الذين هم احياناً اشد حماقة ، برغم كل الظواهر . لكن لا مندحة لنا ولسائر الشعوب الصغيرة المستضعفة ، عن مواجهة هذا الامر البديهي ، وهو ان احدى

الضمانات الاساسية لاستقلال لبنان الصحيح ، وتمتعه بجميع حقوقه وحرياته ، هو استقرار النظام العالمي على دعائم راسخة من احترام حريات الامم وحقوقها وامانيها المشروعة . في مثل هذه البيئة العالمية « السليمة » يحيا الاستقلال اللبناني ، وينمو ويبلغ اشده ، ويؤدي اللبنانيون قسطهم ، مرة اخرى ، في بناء الصرح الانساني العام .

يوجد بضع حقائق لا يحتاج المرء في معرفتها إلى كثير من الذكاء والألمعية: يكفيه شيء من الفكر والروية. نحن لا نعني هنا « حقائق علمية » بالمعنى الاصطلاحي المحدود. إنما نعني « حقائق إنسانية » لم تخرج. أو لم تكد — من نطاق الحوادث، ويمكن القول بها في متناول كل منا، كل ذي فكر سليم، يستخدم فكره السليم حيناً بعد حين، ويعمل الروية في ما يريده، ولا سيما في ما يُراد به. وليست هذه الحقائق، لقلة ما تجري على الألسنة والأقلام، مبتذلة ولا رائجة ولا متداولة. هي من الحقائق المغمورة المطموسة التي تحملنا بسهولة على الاعتقاد بأن أحداً لم يسبقنا إلى معرفتها، بل كنا

نحن السباقين إلى كشف القناع عن وجهها ، أو اطلاقها من سجنها . ولا بأس بذلك ، فإن من الحقائق « الانسانية » ، ما يجمل بالانسان ان يعرفه بما يشبه « الخبرة الشخصية » . وعلى كل ، فليس لمن عنده مسكة من عقل ، ان يلتمس هذه الحقائق وامثالها في كتب المعارف « التوجيهية » ناهيك بكتب التاريخ ، لسبب بسيط هو ان المعارف « التوجيهية » لم توضع لهذه الغاية ، أي « توجيه » الشعوب نحو معرفة الحقائق ، بل بالضد . ولماذا ؟ لسبب بسيط ايضاً هو ان الحقائق التي أشرنا اليها ، كانت ، ولم تزل ، تعد حقائق خطرة ، تدور حول علاقة الناس بعضهم ببعض ، وحول علاقتهم جميعاً بما يقتنون أو يملكون (ويدخل فيه المنقول وغير المنقول من المال ، والثابت وغير الثابت من

الامتياز) ، وكذبت حول علاقتهم بذلك الشيء المشترك ، أو على الأقل المفترض انه مشترك ، نعني : الحكم وما يداوله من توزيع الحقوق والتكاليف والمغانم والمغارم ، وهلمجرا .

لكن قبل التبسط في الموضوع ، أحب أن أمهد له بأبيات من الشعر ، ومن شعر المعري الخالد . فأولاً : ان المعري حي بعد الف من السنين ، يظل هذه السنة التي نحياها ، فأحداها واحة من واحات الفكر . وثانياً : نحن أمة نحب الشعر ، كما هو مشهور ، ونتذوقه ، وقد يكون فهمنا إياه أيسر وأجود من فهمنا أي شيء آخر ، اللهم ما خلا التجارة .. لكن الحالة الراهنة عندنا جديرة بان تنفي - ان شاء الله - كل تناقض ينشب بين الشعر والتجارة ..

لأبي العلاء المعري بيتان سمعناهما وقرأناهما لمناسبة عيده الألفي، ألف مرّة ومرّة. وما إخالنا نقف منهما حدّ التخمة، كأننا أبداً في جوع وظمأ إلى إنشادهما أو سماعهما. ذلك قوله:

مُلّ المقام، فكم أعاشرُ أمّةً
أمرت، بغير صلاحها، أمراؤها!
ظلموا الرعية، واستجازوا كيدها،
وعدوا مصالحها، وهم أجراؤها.

ويستنتج العلامة الدكتور طه حسين من هذين البيتين أن المعري « لا يرى الملك ولا وراثته، وإنما يرى الانتخاب والبيعة، كما يراها الجمهوريون. » سوى أن صديقنا المحدّث الدكتور عمر فرّوخ يعجب كيف فهم صاحب « الذكرى وتجديدها » من هذين البيتين، معنى البيعة والانتخاب ومبادئ الجمهوريين

«إلا ان يكون قاده الى ذلك لفظة : امرأوها . ولعله لو انعم الفكر في الكلمة ، ثم قرأ البيت ثاني ايسر قراءة ، لتبين له وراء كل ريب وشك ، ان أبا العلاء يهجو بها جميع الحكام ، اورثوا الامر ، أم اغتصبوه ، أم حملوا اليه على الاكتاف .»

ليس من قصدنا الوساطة بين الدكتورين القاضيين ، وهما من لا نخشى - ولله الحمد ان تضيع الحقيقة بينهما . على ان ما يهمنا من شعر المعري هو مدلوله الطبيعي — إذا امكن القول مدلوله القريب الذي نرجو ان لا يكون موضع اختلاف ولا تأول . اما ما قد يستقر في « مؤخرة » رأس المعري ، فهو ما لم نؤت علمه . واكبر الظن اننا إذا زعمنا اثباته ، لم نكن قصارانا الا ان نثبت ما في « مقدم » رؤوسنا .. ذلك المدلول الطبيعي

القريب هو انّ الحكام، سواء اورثوا الحكم (والوراثة ضرب من الغصب) ام حُملوا اليه بالبيعة (والبيعة ضرب من الانتخاب) هم «احرار الامة» في عقل المصري الظاهر والباطن على السواء. ذلك هو الامر الجوهري الذي لا نريد ان يضيّع عنه مضيّع. اما يكفي انهم كثيراً ما يضيعونـــا عنه بالفعل، حتى نضيّع عنه ايضاً بالقول ؟

إذ نحن سلمنا عن طيب خاطر ، بان الاستقلال « شيء يؤخذ » مدنياً ، فيجب ان نسلم ايضاً بهذه الحقيقة التي ليست دون الحقيقة الاولى ، لا بداهة ولا خطورة — بل على الضد . وهي ان الاستقلال « شيء يحقق » عملياً . وفي هذا « التحقيق العملي » حفظ الاستقلال وضمان دوامه وتثبيت دعائمه ، فلا يبقى موضع نظر او اعادة نظر ، لا في انفسنا ، ولا عند غيرنا ، اي بعبارة أخرى . لا في داخل ، ولا في خارج . ولا ندحة في ذلك عن ان يستوفي الاستقلال شروطه ، كل شروطه ، المادية والمعنوية .

وصحيح ان للاستقلال شروطاً معنوية او روحية لا غنى عنها ، كالشعور الوطني وروح التضحية

والارادة المشتركة وحسّ التضامن القومي، وما إلى ذلك. صحيح ان الاستقلال يستلزم، كي يعيش وينمو ويبدع اشدّ، هذه «البيئة المعنوية». صحيح ان تلك القيم لا بد منها في حياة الامم. لكننا مفطورنا او، وهو الاصح، محرومون التقليدي الطويل، من ممارسة الحريات العامة ممارسة فعلية، ومن التمتع عمليّاً بنعم الحياة الاستقلالية، ميالون إلى «تعاطي» هذه القيم «الروحية» وادمانها، إلى حدّ يوهم اننا في غفلة عمياء عن تلك الشروط او «البيئة المادية» التي لا يمكن ان يحيا استقلال، وان يضمن بقاؤه او تثبت دعائمه، الا بها وفيها. على ان الشروط المعنوية نفسها متوقفة على الشروط المادية، مندغمة لها بالدرجة القصوى، وليس يصح تماماً قول العكس. فالشعور الوطني وروح التضحية

والارادة المشتركة وحس التضامن القومي لا تتولد من ذاتها ، في الهواء ، تولداً فطرياً ، بل تعوزها الاوضاع الملائمة ، والمؤسسات اللازمة .. يعوزها ، اقل ما يكون ، كتاب ومعلم ومدرسة وطلاب . الكتاب يحتاج الى اختصاصي يؤلفه ، ثم الى معلم يعلم به . والمعلم يحتاج الى مدرسة يدرس فيها . والمدرسة تحتاج الى طلاب في وسعهم ان يؤموها . وقد يمكن ان تعتبر هذه الاشياء جميعا في صف القيم المعنوية او الروحية ، لكن بعد ان تصنع ، وتوجد الشروط الضرورية لصنعها . اما قبل ان تصنع الاشياء وتتوافر شروط صنعها ، فلا مناص من ان نعاملها « معاملة » القيم والشروط المادية .

لسنا في معرض المقايسة او المفاضلة بين طائفتين من القيم : المادية والمعنوية ، في حياة الافراد

والامم . على انه إذا كان ثمة مجال للمفاضلة بينهما موضوعياً وذاتياً ، فلا مسوغ للمفاضلة ، لا عملياً ولا اجتماعياً .. انما اردنا التنويه بارتباط بعضهما ببعض ، بل بملازمة بعضها لبعض . أردنا الاشارة إلى وجوب العناية بحياتنا الاقتصادية ، والاهتمام بمستقبلنا الاقتصادي . ولنضرب مثلاً : معيشتنا اليومية . فنحن لا نعرف السبيل ، لا نظرياً ولا عملياً ، إلى « الترفع عن الدنايا » التي تتألف منها « حياة » كل يوم . وعلام هذا السمو بالنفس ؟ أأقل فقط ان قد تمنا نصيحة بين يديها فريق من المواطنين الكرام ، ليس يكفيهم الجمع بين تلك الاسباب ، بل هم يحرصون أشد الحرص على دعاتها ؟

الاستقلال مثل اعلى ، اجل . لكنه كسائر المثل العليا ، لا بدّ له من جناحين يطير بهما ..

ليس الاستقلال كرة يتقاذفها لاعبون ، مهما أفرغوا في ذلك من جهد ، واصطنعوا من حدّ ، وسواء ألزموا لقواعد المحترمة في اللعبة ، أم تجاوزوا حدودها وخرقوا حرماتها .. ولأبادر إلى القول بني لا أحمل هذه الصورة « الرياضية » آية إشارة إلى الخلافات والمنافسات، ما كان منها صارخاً أو مرمّ ، طبيعياً أو متكلفاً . كما اني لا اعدّ نفسي مسؤولاً عمّا قد يرد على الخطر ، من شتى التآويل ومختلف النتائج .. صحيح ان الصورة خصبة غنية ، تتسع لأكثر من تفسير أو تخريج واحد .. (بدا لي هذا منذ جرت الصورة على قلمي ، فأخذت أفكر فيها وأقلبها على وجوهها العديدة ، ثم امسكت ، مخافة ان

أتوصل أخيراً إلى ما لا تحمد عقباه ..)

لكن أردت – ولم أرد أمراً آخر – أن الاستقلال ما كان ، ولا يصح أن يكون ، معنى قائماً بذاته في دنيا القيم المطلقة ، منفصلاً عن البلد المستقل أو – وهو الأقرب إلى الصواب – عن أبناء البلد . فضلاً عن أن الاستقلال ما كان ، ولا يصح أن يكون ، فقط من حيث لا أفهم العلاقة التي تدل على كل شيء ، خلال الواقع والحقيقة . لا ، فالاستقلال مادة حية ، أو هو جسم يستمد الحياة من لحم الأمة ودمها . ومن ثمة أيضاً يستمد القوة والبقاء . ولست أعني بهذا أن الشعب هو الذي يقدم في الأزمات الحادة قرابينه ، ذوداً عن الاستقلال ، أو يفتديه بأفراد منه في ساعات الخطر ، بقدر ما أعني ذلك المدد « الجوهري » المستمر ، من

الشاهد والتضحية ، في الحالة الطبيعية ، في سياق الحياة العادية .

ان الوطن اللبناني قد استتم ، او كاد ، حدوده الدولية او الدبلوماسية ، باعتراف الدول الديمقراطية الكبرى وحدوث العربيات بهذا الاستقلال . وكان طبيعياً ان تخص بك بشاحنه من الوضع الجديد ، بما احتفت به من الاهتمام والعناية ، خلال عام وتيف . لكن من الطبيعي ان لا تغفل في الوقت نفسه ، عن هذه الحقيقة ، وهي ان الاستقلال ليس وضعاً خارجياً دولياً وحسب ، بل هو ايضاً وبالدرجة الاولى ، وضع داخلي شعبي . وان اوثق ضمانة لاستقلالنا هي ان يحس الشعب احساساً مباشراً حياً بأن هذا الوطن الذي « يعم » اليوم

بالاستقلال ، هو له ، هو وطنه ، « ينعم » هو بخيراته — وليس لافراد أو فئات منه ، كل شيء يتبدل في الدنيا وهم لا يتبدلون . فقد نسلّم بأن الوطن اللبناني ينعم بالاستقلال « مجازاً » . إنما الذي يمكن القول انه ينعم بالاستقلال « حقيقة » فهو الشعب اللبناني .. على انه ليس بكاف ان يقال هذا للشعب حتى يصل إلى التصديق .. فالشعب اللبناني اليوم يطمح إلى ما وراء القول . الشعب اللبناني الضمانة الباقية ، إذ كل ضمانة سواها عرضة للزوال ..

.. الشعب اللبناني ، الضمانة الاولى والاخيرة — الضمانة الباقية — للاستقلال وللكرامة الوطنية .

وبعد ، اليس هذا الاستقلال وهذه الكرامة الوطنية الملازمة له ، واسطة لا واسطة سواها ، إلى الغاية التي لا غاية وراءها ، وهي ان يحيا الشعب اللبناني حياة سعيدة ، في أرضه العزيزة ، متفيئاً ظلالها ، ناعماً بخيراتها ؟ ان استقلال الوطن اللبناني يتوقف ، إلى مدى بعيد ، على استقلال الشعب اللبناني ، وتمتعه بحرياته المدنية والسياسية ، تمتعاً صحيحاً .

ومتى قلنا : الشعب اللبناني ، فلا بدّ من ان ندخل في الحساب ، جماهيره العاملة المنتجة ، في كل ميادين العمل والانتاج ، اعني : السواد الاعظم الذين هم ،

بعض انظمتنا الحاضرة ، بعيوبه الاصيلة وعيوب
تطبيقها ، يحسون احساساً بليغاً بانهم بعيدون جداً
البعد ، من ان يحققوا في انفسهم ، معاني الاستقلال
والكرامة .. وليس يجدي الوطني شيئاً ان نثبت
حقوقه وحرياته ، اذا لم نعط في الوقت ذاته ، الوسائل
الضرورية لممارسة تلك الحقوق والحريات : انها
تبقى هكذا حبراً على الورق ، بل كتابة على الماء .
ومن البديهي ان هذه العناصر الشعبية لم تكن
ممثلة ، على صورة ما ، في جهاز الحكم النيابي ،
لا مباشرة ولا بالواسطة . وتعليل ذلك بسيط غاية
في البساطة : ذلك ان جميع القوى تضافرت ، خلال
الانتخابات الاخيرة ، على عزل تلك العناصر وتنحيتها ،
ويجب القول انها قد وفقت كل التوفيق . لكن
ترى ، هل يطول لبنان في معزل عن الحركة العظمى

التي تغمر العالم ، حركة القوى الشعبية المتصاعدة ، حتى تسد الأفق ؟ أكبر الظن أن هذا لم يبق في الامكان ، ولا سيما بعد ان ثبت الشعب اللبناني نضجه السياسي ، ووعيه الاجتماعي ، ورغبته الصادقة في ان توحد منه كله حيوية ، حلول الملائمة . ونحن احرياء ، بعد تحققت امنيه الوطن اللبناني في الاستقلال والكرامة ، بأن ننتظر تحقيق اماني الشعب اللبناني في استقلال جماهيره العامة المنتجة ، وفي « مراعاة » كرامتها الانسانية ، توفير الاسباب لتتمتع بالحقوق ، كل الحقوق ، وبالحريات ، كل الحريات .

كل شيء يؤذن بوشك انتهاء الحرب ، وبانتهائها
على ما نشتهي ونريد . لم نكن بحاجة إلى هذا
البرهان الأخير كي تطمئن نفوسنا : إنارة البلد .
على انه ، والحق يقال ، برهان « ساطع » . . ان
هذه العبارة « البرهان الساطع » قد استعملت في
مناسبات كثيرة ، كان البرهان الساطع يزيدها تعمية
في بعض الأحيان . وكأنها ظلت مئات السنين
تنتظر ، حتى استعملت الآن في الموضوع الذي
خلقت من أجله . ان إنارة البلد لبرهان ساطع على
وشك انتهاء الحرب ، وعلى انتهائها كما نشتهي ونريد .
فالعدو الألد أمسى عاجزاً عن ان يمسنا بسوء . ولا
نظن انه يوجد نوع من الخلق ممن كانوا ليؤمنوا

إلا بهذا النوع من ابراهيم .

أأنت تقضي سهرتك هنا ؟

هكذا تكلم صديق غاب عني نحو اسبوعين ،

وقد رآني جالساً على الفراش في ومض من النور .

أجبت . نعم ! هو كما ترى . وأنا أقرأ اليوم

(سقط الزند) للمعري . وشرحه (ضوء السقط) ،

وشرح شرحه (التنوير) . أريد أن أثأر لنفسي

من تلك (الزومبات) التي قضيت فيها سني الحرب

بطولها ، ملتمساً النور في « تعتيمات » شيخنا الأعمى

رحمه الله . ثم لا تنس ان المعري هو القائل .

ليلتي هذه عروس من النور

ج عليها قلائد من جمان

.. إذاً لأيام حلت . كما في حالة يسمونها

تارة . التعتيم ، وتارة : حجب الأنوار . ان في

حق الأنوار معنى، بل زيادة معنى ليست في التعتيم، هو معنى الصف الذي يلابس الأجرام: حق النور، وحق العلم، وحق الحرية، وما أشبه. وليس في الوقت نفسه على الخانة الروحية ما أشبه عن حدث التعتيم الذي لا أحد ما أصابه به إلا أنه، في عصر النور هذا، ظلام «مصطنع». وكذلك هم يسمون الدهان الذي يطلى به زجاج النوافذ «غوبا».

يحكى أن أعرابيا أعور أصيبت عينه السليمة بحجر، فوضع يده عليها وقال: «الحمد لله أمسيت.» يريد أنه دخل في العتمة التامة، أو بعبارة أخرى: أصابه العمى، كما أصبنا نحن بالتعتيم، خلال هذه السنوات الخمس التي خرجت فيها الأنجمة الحسناء، دون حياء، من حلتها الوضاءة، وهي كل ثيابها.

لقد حرمتنا الحرب ممارسة حريات متنوعة،

وكانت أول حرية ابيحت لنا حرية التموين ، وهي الحرية التي تهم الحرب مباشرة ، بلا مراء . واكبر الظن ان ستتبعها سائر الحريات التي لا علاقة لها ، قريبة او بعيدة ، بميادين القتال وسلامة القواعد ، وانما تنسبها السياسة إلى الضرورات العسكرية ، على سبيل الاحتياط ، او حسماً للقيل والقال . وهكذا شأن الاعضاء الزائدة في الجسم الانساني ، تبقى بعد ان ضاعت وظيفتها ، لكنها هنا تؤدي من الوظيفة غير ما وجدت له . وبالامس طالب فريق من افاضل النواب برفع المراقبة عن الصحف . ومما هو حري بالانتباه ان الاقتراح جاء خلال نقاش دار حول الحالات التي يكون المجلس النيابي عرضة لها من وقت إلى آخر . فاثبت النواب انهم لا يخشون العدو الوهمي ، كما اثبت الدفاع السلبي انا

صرعى في هوة من عثرات النازي المتخاذل . وظلوا
لنا هذا الضرب الآخر من التعتيم الذي يدعونه
بالمراقبة . حتى ان يسير عهدنا الاستقلالي الديمقراطي
نحو اكثر فأكثر ، من الحرية والنور .

لما تسلم صاحب المعالي من الكاتب الفرنسي ،
في احتفال رائع وصفه الواصفون ، صوراً من
القصة ، كما ترد الامانات الى اهلها ، جرت الالسنة
والاقلام في موضوع الجيش الوطني . ولا غرو فهو
حقاً موضوع جدير بأن تجول فيه الالسنة والاقلام ،
بل لعله اجدر المواضيع بالاكثار من التحدث عنه ،
وبالافاضة في شأنه ، وتقليب وجوهه العديدة . ان
المتحدثين كلهم نظروا في الموضوع من ناحية او
نواح معينة ، فالقوا عليها نوراً كاشفاً . لكنهم جميعاً
كانوا يخلصون الى مثل الغاية الواحدة ، فتمتزج
الاشعة في « شلة » من لهيب واحدة ، وغني عن
البيان ان هذه الاحاديث ، على بكرة ابيها ، كانت

تستضئ بشعور الغبطة العميقة الشاملة التي تخالج قلب
كل مسنّ، كما رأى يحيي رأسه، استقلال الوطن
يستتم تدريجاً شروطه ومقوماته، كشخص لحبيب
تنحسر عن ملامحه الوسيمة، رويداً رويداً، عتمة
الخفاء. وبديهي ان تلك الغبطة العميقة الشاملة ما
كانت ولن تكون وقفاً على الكتاب والشعراء،
وإن يكن هؤلاء يجيدون أكثر من غيرهم، وصفها
والعبارة عنها والاشادة بذكرها.. ليؤذن لي انا
ايضاً ان اقول كلمتي في الموضوع.

لكل مرىء هوى، بل هوس يملك عليه لبه
وشعوره، يقيمه ويقعده، يلازمه في جميع حالاته
ومواقفه، حتى ليحسب عارفوه انه، وهو الكائن
المركب، قد قطعة واحدة ليست تتحرك بسوى
حركة تشخيصية لا تبديل لها. وانا — ولا بأس بأن

التعرض تهمة لبساطة التي لا بد منها . هواي او هوسي فيما يدعونه « الوحدة الوطنية » . لكن يعزيني عن هذه البساطة الممنة امران . اولهما ان ما اسميه هوساً ليس في غير موضعه ، ليس من الامور التي لا موضوع لها . فوحدة الوطنية لم تتحقق بعد ، وان يكن الشعب اللبناني قد خطا نحوها خطى واسعة . وثانيهما ان هوسي هذا ليس منحصراً بي ، مقصوراً علي ، وهناك من يشركني فيه ، وفي الاذعان له ، وفي ممارسة الحاحه ، اكثر اللبنانيين ، كلما رجع واحدهم الى ذاته ، يتدبر شؤون بلده العامة ، في ماضيه وحاضره ومستقبله على السواء .

وهناك حقيقة لست أجد بدأ من الجهر بها ، وان يكن من شأنها ان تصدم نفراً كبيراً من خاصة اللبنانيين ، من النخبة الصالحة أو قادة الرأي ، كما

يسمونهم . تقحمهم في ما هو أعز شيء لديهم ، أعني ما يرسلونه نثراً ، او ينظمونه شعراً . تلك الحقيقة هي ان الوحدة الوطنية التي نرجو ان تتحقق في الشعب اللبناني ، والتي تمدم أو ، على الأقل ، تنسحم فيه الفوارق الجنسية والطائفية بين العناصر المؤلفة هذا الشعب . ان الوحدة الوطنية لن تكون من صنع هذه الفئة الصالحة : الشعراء والكتّاب والخطباء .. لسوء الحظ ! إذ لو كان هكذا لكان الأمر أيسر وأقصر سبيلاً . والشعراء والكتّاب الذين تكفيهم الدعوة إلى الوحدة ، يقينهم بها تتحقق بمجرد الدعوة اليها ، إنما هم خادعون ، أو مخدوعون وهو الأرجح : انهم يؤخذون بسحر كلامهم . كم وعظ الواعظون منذ ... — كما قال المعري منذ ألف سنة .

ان الوحدة الوطنية لا تتحقق ، لأن شرائع تُسن

وتمهد ، ومنشآت تقام ويعنى بها . ان الوحدة الوطنية يعوزها مصنع : المصنع الذي ينتجها كما تنتج الامتعة المادية ، كما تصنع عمياً . واني أدل الآن على مصنعين اثنين (لا على مصنع واحد) يصح ان يتعاونا على صنع الوحدة الوطنية ، هما حقيقان بصنعها ، كما يصنع الفولاذ : الثكنة والمدرسة.

الثكنة والمدرسة .. لكن بشرط ان لا تقوما على هذا الأساس « المزمن » الذي تقوم عليه حياتنا العامة والخاصة ، وهو ما يسمونه « الطائفية البغيضة » . بالطبع ، وإلاّ فذلك من قبيل تحصيل الحاصل ، أي لا شيء .

لقد اصبحنا ولنا طليعة جيش .. عسى ان يكون لنا أيضاً في القريب العاجل طابور كامل العدد والعدة من المعلمين .

ذهبتُ في اواخر الصيف الماضي ، الى سماع محاضرة من احد قادة الرأي عندنا . وكان العنوان مغرياً ، يثير في النفس شعوراً هو أعلى من العصبية مرتبة ، واطيب عنصراً . فجلست استمع . كان الحضور لا يزيدون على المائتين عداً ، لكن من النخبة التي لا يعدمها احتفال ، مهما يكن نوعه ، في قرية من قرى الاصطياف ، يتوافدون عليه رجالاً ونساء ، من المحلة ذاتها ومن المحلات القريبة ، ثم ينصرفون بعد ساعة من الزمن ، راضين مطمئنين إلى انهم لم يضيعوا ثلاثة اشهر بكاملها ، بل اهتموا ايضاً لما يحسن الاهتمام له من الشؤون التي تتجاوز دائرة الحياة اليومية ، او تسمو عنها .

ويُقبل الجنس اللطيف على امثال هذه الحفلات ، ببسمة « محترمة » ، كأن النساء اعظم حاجة الى ذاك اللون من راحة الضمير ..

كان في الحضور وجوه عرفتها جيداً في العاصمة ، استرعى انتباهي ان نفراً منهم يحملون المحاضر كأنما كان حرب القناة . وقد نصب المنبر ووضعت المقاعد في خلاء ، وسط ملعب يملأ الفراغ المنبسط من الكنيسة القديمة الى النادي الجديد . وهذا الملعب بين الكنيسة والنادي ، او بين كنيسة ومدرسة ، « مشهد » تكاد لا تخلو منه قرية تحترم نفسها ، من قرى المتن . ثم تصوروا المشهد بتمامه ، ونحن منه في اطار فخم من مفاتن الجبال والاودية !

كان موضوع المحاضرة لبنان والشعب اللبناني .

والمطمع : في الماضي والحاضر والمستقبل . ذلك ان هـذه الثلاثة تمشي في بلادنا ، وفي خطب خطبائنا ، كأسنان المشط . وقد يدوس بعضها على اقدام بعض ، في الزحمة .

لا شك في ان ما قاله الخطيب يومذاك ، كلّ ما قاله ، هو الحقيقة . ولكنه ليس كل الحقيقة . فهو لم يتحدث في الواقع إلاّ عن جزء من لبنان جغرافيـاً وتاريخياً ، وإلاّ عن فريق من الشعب اللبناني اجتماعياً وسياسياً . وكان حنينه الى الماضي اشدّ منه الى المستقبل ، لا ينفكّ يتلفّت نحوه ، مولّياً إيانا ظهره . . كنت وانا استمع اليه ، إخال ان الوطن اللبناني ليس في فكره (الظاهر والباطن ، ولاسيما الباطن) سوى ذلك الجزء من اراضي الجمهورية اللبنانية ، بزعم « الحدود الحاضرة » ، كما ان الشعب

الساني ليس سوى اهل ذلك الجزء ، دون غيرهم ، برغم « تذاكر الهوية » .

ولست أدري كيف ملت سطري يسرة ، فاذا على سطح بيت قروي تفصله عنا الطريق ، على مسافة عشرين ذراعاً ، شخص ماثل كالصنم ، لا يتحرك فيه عضو ، اسند يده الى سطح البيت المجاور ، وكأنه يصغي بكليته الى الخطيب .. وكانت الشمس تدنف الى مغربها ، مطرزة بالذهب الاكمة المعيدة .. فشغلت وقتاً بالتساؤل عن ذلك التمثال ، كيف ولماذا نصب على سطح بيت ؟ ثم رأيته يتحرك للتصفيق ، فينقلب قروياً بثيابه « العربية » وقف يشهد الحفلة ، ويسمع الحديث . ولا عجب . فقد كان الخطيب آنذاك يختم باللازمة الحماسية التي لا يستغنى عنها قائل وسامع ، على

لسواه .. وانفض المجلس .

وأنا ما شأني هنا ؟ لقد أمسيت بعد تلك المحاضرة ، خارج الحدود جغرافياً ، وخلف الأبعاد تاريخياً على هامش القصيدة العصماء . وأخذت أترقب بوجل ، أن يلبي ، بين هيبة وأخرى ، موكل بتوزيع الهويات الرثة أو المستعارة ، لا يرق ولا يرحم .. ولماذا ؟ لا لشيء ، سوى أني ، وبما غبر من القرون ، لم يتح لي القدر أن أعتصم بشغاف الخيل حرصاً على الحرية ، حيث استألت الصحر صنماً لمرتزق .. إن هذا لأمر عظيم حقاً ، لكن ليس لي فيه يدان ..

لست أذهب إلى إتهام الخطيب بأنه ، وفق هذا ، لم يعن من أبناء ذلك القسم من الجمهورية الواسعة ، غير « طائفة » بعينها ، لا أكثر ولا أقل .. لا ،

لست أذهب إلى هذا الحد ، و ـ يكن حيث من طائفة اخرى قد وسوس إليّ بالملاحظة غامزاً .. وانا لم اؤت حسه ابطائفي الدقيق . ولابادر لى لقول منذ الآن ـ اثقة اليه حجة ? ـ اني برغم كل شيء .. وقف صديقي لدي يشمّ من وصى الارض ، لمن اصبح الناس تقديراً للصورة المـ ـية التي يشف عنها كلام الخطيب ، ومن اصدقهم اعجابـاً بالمعجزة التي ظهرت على ايدي سعه الصالحين . لكن ليؤذن لي ان اقول ايضـ آ ان تلك الصورة ، على روعتها ، ليست كل لسان ، كما ان ذلك الضرب من خوارق على جلالتـه ، لم يكن عاماً في الشعب اللساني . ان ما ذكره خطيب القمح هو الحقيقة ، لكنه ليس كل الحقيقة ؛ قد اخرج من الدائرة بضع حقائق ، كل واحدة هي من نوع حقيقته ، وان لم يكن ه

جـ ما او روعتها .. اخرجها جملة ، دفعـة واحدة .

ولآن ، ما أنا تاركم صويلاً ، تنتظرون على احرّ من الجمر ، حتى اعلن على رؤوس الاشـهاد ، ان تلك النغمة « الخاصـة » جواباً من « القرار » بعينه ، في الجهة المقصودة في الذات المقدسة ، يهتف به هنا وهناك وهنالك ، هذه ليته يخدش آذان المهتمين ، بقدر ما يصم آذان السامعين اذاً لاضطروا بحكم « حسن الحوار » الى شيء من التؤدة ، سوى انا جميعاً مأخوذون بشدة الانزعاج والشكاية .. ينبغي ان نبادر الى اعلان هذا الحكم الصريح ، والا كنا عرضة للتهمة ذاتها ، او باتهمنا مصرين بالمفهة نفسها . على ان ما في هنيك النغمة من الحقيقة « الخاصة » ليس دون ما تكلم عنه ، او اشار اليه ، او عناه ، خطيب الحفلة .

وهكذا تنعدم الحقيقة ، الحقيقة حقة ، الحقيقة النسبية ، بين انصاف حقائق ، كل نصف حقيقة منها هو في موضوعه ، خطأ محض . فان لنصف الحقيقة خطأ تام ، وليس في الامكان ان نجمع بين انصاف الحقائق ، على شكل اصطناعي او نظري ، لنؤلف منها حقيقة تامة ، اي حقة . كما ان مسخين يكشر احدهما في وجه الآخر ، وهو رافع عقيرته بالغناء ، لا يؤلفان انسانا ذي الصحة وسيما ، حتى ولا حلقة طبيعية . ان المسخين الذين يندمجان معا ، يصيران مسخا مضاعفا . وكذلك انصاف الحقائق إذ تجتمعت ، يتألف منها خطأ مركب ، هو اشد ايذاء ، واسع ضررا ، من الخطأ البسيط .

ولست انسب هذا « الخلل » الذهني في جمهرة اللبنانيين ، إلى التعصب بمفهومه الشائع والمنكر ،

بقدر ما أنسبه إلى ذلك النقص الذي ينشأ دائماً عن غلبة الروح الذاتي في تفكير الفرد والجماعة ، أعني : « الذاتية » المضادة لما نسميه « الموضوعية » وهي في أبسط مظاهرها ، أن يتكلف الفرد أو الجماعة ، مؤونة الانتقال آناً بعد آن ، إلى الجهة المقابلة ، إلى الجهات المقابلة ، حيث يتخيل أحدنا « ذاته » في « وضع » الآخر ، وهنا تجري طريق المعرفة والتعارف والمعروف ، وسواها من المشتقات الرفيعة لأنها تنفي أسباب الشقاق ، أو على الأقل ، تكسر من حدتها ، وإن هذه « التنقلات » التي ندعو إليها ، ليست خطرة ولا « مكلفة » ، فنتوسل في الترويج لها ، كما تتوسل به شركات التسفير ..

« لبنان في عهد جديد ! » ذاك ما يقوله كل
من ، أو يحسّه . وهو قول أو احساس يدلان على
واقع الحال ، إلى مدى بعيد . فالشعب اللبناني يحرس
اليوم ، في « ذات » حكومته الشرعية ، شطراً كبيرا
من خصائص سيادته القومية التي ظل محروماً منها
خلال قرون ، حتى ليمكن القول ان تسلمنا المصالح
المشتركة مع حق الادارة والتشريع ، يُعدُّ باكورة
ذلك الاستقلال الذي طالما تاقت اليه نفوسنا ،
واستهدفته جهودنا . وقد تكون الـواكير اشهى ثمار
الشجرة العزيزة التي تُروى بعرق الجبين ودم الفؤاد ،
لكن لاجدال ايضاً في انها ليست كل الموسم ..
ان ما ينتظرنا يقظة لا يغفل لها طرف ، ودأب لا

تمثر به قدم .

على ان الحدث نساني لم يكن وحده الجديد في الدنيا . وقد قلنا منذ البداية ، ان استقلال لبنان ليس في الواقع سوى حلقة من حلقات ، في سلسلة تنتظم اجزاء الكون القريبة والبعيدة ، او مظهر من مظاهر متعددة متشابهة يتجلى فيها ذلك « الجديد » الشامل الذي يتمخض به النظام العالمي ، ويقاسي من حرارته آلاماً كآلام الوضع ، وانه من هذه الحرب في احدى ازمته الحادة الخاصة . وقد اثبتت محنة السنين الاخيرة ان بلادنا ما كانت ، ولن تكون ، في نجوة من نفث الآلام ، او بالاقل من « انعكاسها » . نريد ان نخلص إلى هذه الحقيقة البسيطة وهي انه لم يبق في وسعنا ، إذا نحن فكرنا في وطننا وفي شؤونه الحضرة والمقبلة ، ان نفكر لبنانياً ولا عربياً ،

حتى ولا شرقياً وحسب . فلا مندوحة لنا ايضاً عن ان نفكر دولياً وعالمياً وانسانياً . ان لكل شعب من شعوب الدنيا ، لحق متم الحرية وفي عرضها على السواء .

واذا لم يكن الحدث الدائى وحده بالشيء الجديد في الدنيا ، فكذلك ليس تساند المصالح المشتركة وحده بالشيء الجديد في لبنان . يجب ان نعتقد انه قد نسينا مع تلك المصالح ، روحاً جديداً هو « الروح الانساني » لدي كل متشرد ومنطح ، ومتورعاً مجتمع ، ومنميزاً ونتسف . امد تجلى هذا الروح الانساني الجديد في إرادة اللبنانيين جميعاً ، على اختلاف طوائفهم واجناسهم ، ان يعيشوا معاً ، ابناء شعب واحد حر ، في وطن واحد سعيد . وانا لنرجو ان يتجلى هذا الروح كل ساعة ، ولكن

مدسة ، في جهود اسداليبن لمتووة ، المتضافرة ،
المتناصرة ، خدمة كيانهم الوطني ، وانماء مرافقه ،
وتعزيز كرامته : ان هذا روح للداعي المشترك
لفي رأس مصالحنا المشتركة .

لقد اتى على لبنان زمن وهو يتخبط في حيرته ،
ولا يفتأ يبحث جاداً عن ذاته ، تارة مشرقاً وتارة
مغرباً ، ووجد ذاته اخيراً ، لكن حيث يجب ان
يجدها ، اعني في لبنان . ولعمرى انها نقيه لا
ينبغي لنا ان نضيعها ، لانه يعلم متى يجدها مرة ثانيه ،
إذ اضعناها هذه المرة . ان اللبنانيين يلتقون اليوم
على الصعيد الذي يسمونه الوطنية او القومية .
وكأنهم اخوان تلاقوا بعد تغرب طويل ،
محفوف بالمخاطر والاهوال ، فطفقوا يحيي بعضهم
بعضاً ، ويتباشرون بسلامة العودة ، ثم يتعاهدون

جميعاً على ان لا يبرحوا ذلك الصعيد الطيب ، مخافة
ان يتورطوا في شبهات التخوم التي تقيمها الفوارق
من جنس ومذهب ودين . فقد ثبت ذات يوم ، ان في
لبنان بين المذهب والمذهب ، وبين الجنس والجنس ،
من الحدود والحواجز ، ما يحتاج معه إلى جوازات
سفر ، كأن شعوباً في شعب ، وأوطاناً في وطن ..
نحن هنا في حاجة إلى ما يفرق ويقطع ، فما أكثر
هذا عندنا ، بل إلى ما يؤلف ويجمع . ان ذلك
الروح اللبناني الذي يتجلى في إرادة اللبنانيين ،
على اختلاف طوائفهم واجناسهم ، ان يعيشوا معاً ،
ابناء شعب واحد حر ، في وطن واحد سعيد ... ان
ذلك الروح الجديد يؤلف ويجمع . بل ليس إلا ما
يؤلف ويجمع . فما احدرنا إذاً بان نتعهده بالصون
والرعاية ، وان نغذيه بالعقول والافئدة ، حتى ينمو ،

ويبلغ اشده ، فلا تُخشى عليه عوادي الزمان .

ان لبنان حديث عهد بالاستقلال : هذا ما يقوله التاريخ القريب . وهو كذلك حديث عهد بروح الجديد الذي خلق اللبنانيين امة ، وبلادهم وطناً : هذا ما تنطق به خبرة كل واحد منا ، في قرارة نفسه ، وفي جهود بذلها ، وفي عزائم نصاعفها ، فلا توازي في كفة الميزان ذلك الروح الجديد الذي لا استقلال بدونه ، بل لا وطن ولا امة بدونه .

الروح الجديد ! لقد اكثرت من الكلام على هذا « الجديد » حتى مللته . يجب ان يصبح هذا الجديد الطريف في لبنان ، قديماً او كالقديم ، تليداً او كالتليد ، وكأنه تراث آباء لنا صالحين .

استدراك

سقط حرف الجر « في » من آخر السطر الثاني في الصفحة ٧٧ .

وسقطت « » من السطر الأخير في الصفحة ١٠٩ .

انتهى طبع هذا الكتاب في

مطابع الكشاف

في ٢٥ كانون [illegible] ١٩٤٥ .